30

رواية

فيروز التميمي

البندق.. لا أحبه مقشراً، يصبح شيئاً آخر.

البندق.. يشبه اسم " النيء والمطبوخ ".

أضع حبة بندق في فمي، فأستعيد طعم الجذور التي كنت أقضي أيامي بحثاً عنها، أستعيد ألم أظافري التي تتكسر وأنا أنبش التراب المتيبس لأخرج جذراً وجدته. أنفض عنه التراب وآكله.

كنت أحمل طفلاً على كتفيّ، أربطه إليّ ببعض سيقان النباتات المدّادة. كنت أقرفص على طرف النهر، كان الصيف، لم تكن الثياب. كان الشتاء وكنّا نختبيء في أزمنة أخرى أو كهوف أخرى، نغيب عن الحياة طوال الشتاء.. ثم.. حين تعود العصافير للخروج كنا نخرج. كنت وحدي.. ولا أعرف هذا الطفل، أعرف النهر، أعرف الكوخ الذي كنت أعود إليه دوماً، وأعرف حشية القش التي أنام عليها، والحبيب الذي أنتظره كلما وجدت أرنباً معلقاً على شجرة في طريقي. كان يعرف طُرقي.. ولم يكن الكلام، كان ينظر لعينيّ فأعرف ما يريد قوله. لم نكن كثيرين.. ولم تكن الملامح تختلف، لذا لم نجد حاجة إلى تأكيد ما فهمناه باللغة، كنا أكثر ثقة بفهمنا من الآن. كنت واثقة من حبه واثقة من شبعي، واثقة من ملمس الشمس على كتفي العاري ومن طبقة الجلد الميتة في أسفل قدمي. كانت الأشياء ذات بعد واضح ومريح. كنت وحيدة لفترات طويلة وكنت أمشي. كان هناك مكان ما أو شيء ما أمشي لأصل إليه، لم أكن أعرف هذا المكان أو الشيء، لكني كنت أعرف أنني حين أجده سأتوقف عن المشي. أعرف أنني سأجده وسأعرفه.. لذا كان هناك دوماً ما يجب أن أفعله.. المشي. وكنت وحدي.. أنظر حولي، الغزلان في طريقي كانت تراني جميلة، والشجر كان يتمسح بي، تقرصني النحلة مداعبة فأقرصها.. كان لي شعر طويل ووجهُ أسود مدوّر، عينان مندهشتان وجسد أزرق في الماء، كنت ألتمع تحت الشمس. وحين أقفز في النهر لأقطف سمكة أتسلى معها في طريقي، كانت المياه تفور حول جسدي. كنت أفعل الأشياء دون صعوبة.. ودون تساؤل.

في المرة الأولى التي شاهدت الماء فيها.. كنت كأني وجدت جزءاً مني أو كأني اكتملت، هذا هو بالضبط ما لم أجده من قبل، وأظنني أحببت الماء زمناً والماء أحبني. تلازمنا زمناً. كنت أراه مكتملاً دون فائض، كان الكافي. وكانت شفافيته تفاجؤني.. لم أرَ من قبل شيئاً شفافاً. الصخور في قيعان النبعات كانت كريمة.. ملونة وتلتمع. كان للماء لون الصخور التي تحته، كان للماء كل الألوان معاً وكان بلا لون، هذا ما أحببته فيه.. أنه

يجمع الأشياء جميعاً دون أن يترك طبيعته، لكن هذا بالضبط ما جعلني أقسو عليه وأتركه. كان أنانياً، لم يكن ليتخلى عن شيء فيه، لم يكن ليترك أرضه. مكثت بجانبه بعض الوقت ثم مللت.. مللت لدرجة أنني لم أعد أستمتع بالنوم تحت الماء، هذا الذي كان دهشتي العظيمة لوقت طويل. صرت أفكر كيف يمكن أن أرحل دون أن أجرحه.. دون أن يكرهني. لم يرض أن يعطني شفافيته ويأخذ لوني الأسود. أحببت أن يمنحني هذا اللالون.. جلست أياماً بجانبه وبكيت له. كان بكائي حينها لا يشبه بكائي اليوم.. كانت عيناي هي من يقول أنني أبكي أو أفرح أو أتحدث، فيما بعد استغربت هذه النقلة النوعية في وظائف أعضائي. لماذا فجأة صار للأصوات كل هاته القيمة.. صار الفم هو ما ننظر إليه حين يحادثنا أحد.. صارت العيون مترددة وشاكّة.

أخبرت الماء أني سأتركه.. ظلّ ساكناً، قال أنه سيمنحني شيئاً صغيراً يذكّرني به. منحني شيئاً له لونه وطبيعته، شفافاً وساكناً، وضعه في رحمي ورحلت. صار يكبر فيّ.. غيّرني قليلاً. ثم حين رأيته للمرة الأولى.. كان له عينان سوداوان وجسد شفّاف. فيما بعد.. ضحكت حين سمعت الاسم الذي أطلقوه عليه.. ابن ماء السماء. دخل التاريخ دوني.. وظللت أفتش عما لا أدريه، ظللت خارج التاريخ.. عابرة للجغرافيا.. وحدي.

كل ماء منحني طفلاً، وكل طفل كان له لون الصخور التي كنت أغفو عليها تحت الماء.

لا أذكر متى حدث هذا.. ما أذكره هو أنني أنا من كان موجوداً طوال الوقت، لم يكن أحد ثابت غيري.. الجميع أتى ثم ذهب. انتقلت من مطرح لآخر، انتقلت من الشمس الذهبية.. إلى العتمة الخضراء. لكني دوماً كنت موجودة، لا أذكر الوجوه كلها التي عايشتها، لا أذكر كثيراً من الأشياء، فأنا.. امرأة بلا ذاكرة. أذكر فقط حزني حين فارقت الماء، وحزني حين لم أستطع أن أكون لبؤة، حين توقف جسدي عن اتخاذ ألوان الأشجار التي أنام فيها.

حين لم يكن الكلام.. كان لي وللأشجار نفس اللغة. كانت تتحدث إليّ كما أتحدث للماء، وكنت أشبه العالم الذي أعيش فيه.

لمَ صار الكلام؟.. لأننا مللنا.

لمَ صار الكلام؟. الكذب سابق على الكلام.

لمَ صار الكلام؟.. لأن شقيّا أراد أن يسلينا فاخترع أشياءاً لم نعرفها وبشراً غيرنا لم نرهم.

طرأ الكلام حين احتجنا أن نكذب.. فقط.

قبل الكذب.. كانت اللغة عيون.. والعيون وجه بكامله.

صرنا ننتظر كذبته اليومية.. ذاك الشقي.

خلّصنا من رتابة أيامنا، ومنحنا كلٌّ لوحده مساحة يكمّل فيها صوره الخاصة.

كانت الأمور أحياناً تختلط عليّ، ولم أعد أعرف حدود اللعبة. صرت أخلط بين الكذبة والحياة، لكني كنت أنظر للعيون فأعرف. ثم جاء وقت صمتت فيه العيون.. لم تعد تتكلم، فقدت لغتها وصوتها.

حينها.. صمتت الأشياء. فاختلفتُ عن الشجرة والنجمة. فقدت إلى الأبد حديث الأشياء معي، حاولت ألا أتكلم.. لم يعد يفهمني أحد، وحين تكلمت.. حاولت ألا أكذب، لكن لم يعد يحبني أحد. وحين فهموني وأحبوني أحسست أن لا قيمة لفهمهم ولا لمحبتهم فقد صار كل شيء زائف ولم أجد لي صديقاً سواي. عدت إلى صمتي تحت الماء لكنه أبداً لم يهدني أطفالاً بعد الكلام.

صار " الآخرون جحيمـ"ي. فصرت أرحل عن كل أرض فيها ناس، ظللت أجد بقعاً جديدة وأرضاً خالية أقطنها. لكن فجأة.. اكتظت الأرض وما عاد لي مكان أسكنه وحدي، فقدتُ مشيي، صرت مربوطة بالأماكن والبشر، نسيت أنني كنت أفتش عن شيء أعرفه حين أراه. صرت أنتظر انتهاء الأيام.. وطرأ الموت ولم يصبني..

حين يكثر أطفالي أتركهم وأرحل.

صنعتُ ما خرّب لي عالمي.

كيف لي أن أخرج من نصي؟

إنه يحاصرني.. يلحّ على اكتماله.

إنه زمن المرأة.. لا ينتظر.

إنه زمن الاصطناع.. لا قلب للعفوية.

أكتب نص المرأة.. كي لا يبقى ما لم أقله.

أكتب نص المرأة.. كي لا تبقى روحي تظن بذاتها خيراً.. كي تعرف أنها انتهت.

فلنصنع معاً.. أنا وقلبي.. زمناً للّعب.

ها أنا أبدأ مرة أخرى. مسقمٌ عدد المرات التي أبدأ فيها دون أن أنتهي في أي مرة من أي شيء، يبدو هذا كسمة شخصية لي، هذا الحماس والاندفاع لدرجة الرغبة في الانتهاء من كل شيء دفعة واحدة.. ثم.. هووووب.. يفتر كل شيء. ولو أنني لا أبدأ بعدها من جديد.. مرة.. مرات، لوافقت على تسمية هذه الحالة بالحماس الموسمي، لكن البدء من جديد يمنعني من ذلك، ويدفعني للمحاولة مرة أخرى. إنه يتحول من متعة إلى ألم.. أو فشل.

نص المرأة.. هو محاولتي مرة تلو أخرى أن أقول ما أريد وأفشل. أن أراني، وأرى ما ليس إياي.

في البدايات،كنت أكتب وأنا خائفة أن أنتهي من الأمر كله بسرعة، بالتأكيد سيكون سخيفاً هذا الشيء الذي أنتهي من كتابته دفعة واحدة، فأضع كوابح لنفسي كي لا أندفع أكثر، وحينها، يكون قلبي يتقافز مثل عصفور أخرق. ومرّاتٍ.. كنت أخاف ألا أنتهي أبداً، كنت موقنة من فشلي في إكمال أي شيء مهما كان.. ربما بسبب الوراثة.. أو الخراقة.. أو أسباب أخرى كثيرة. ثم صرت لا أبدأ شيئاً أبداً.. صار يسوؤني أنني لا أفتقد أوراقي وأقلامي الرصاصية المبرية بحدّة. لكن.. بعد فترة ترجع الحلقة من بدايتها وأبدأ من جديد.

ومن أين أبدأ؟! مني، أنا صديقتي الوحيدة.. تمنحني كل ما أريد، ما لدي وما ليس لدي، ما أستحق وما لا أستحق. تخلق لي ألعاباً لأتسلى.. وأياماً لأعيش.. تفاصيل لأحزن.

وأيضاً.. تخلق لي نساءاً لأكتب نصّي. وحبيباً كي أعرف ما هو الحب.. وفراقات لأعرف اللوعة.

إنها.. أنا، كرمٌ يمنحني إياه خيالي الرائع، واختلاطات بين ما أعيش وما أختلق. لم يحببني أحدٌ مثلي ولم يكرهني أيضاً أحد مثلما كرهتني.

لم أحتج للمعرفة. لم أحتج أصدقاء ولا عشاق، لا مقاهي ولا شوارع، لا مدن ولا غرف.. كنتُ اكتمالي.

لكني.. لا أعرف لم ظلّ نص المرأة عصياً عليّ.. رغم النساء الكثيرات اللواتي أخلقهن كي أكتب عنهن.

أحضّر طاولتي.. أدوات كتابتي.. فنجان القهوة، وأحاول. أدعو اللغة، أتوسل لها كي لا يختلف ما أراه في روحي عما أمامي.

أستعدّ لها.. أتهيأ، لكن سقوفي تضيق.. تضيق.. فأختنق بي وباللغة.

ثم.. أقرف من تهيؤي.. أترك، وتكون تلك المرة الأخيرة التي أبالي فيها.. أو أتهيأ.

لكن.. تفاجؤني حماستي البلهاء بعد حين، ودقات قلبي التي أسمعها في معدتي. تبدأ يداي في الارتجاف السخيف. الآن.. وأنا أنزلق نحو الثلاثين، ما زال لي نفس ارتباكات طفولتي.

هل تأخرتُ كثيراً؟

كلما أمسكت كتاباً، فتشت عن عمر كاتبه حين بدأ الكتابة، أحببت دوبوفوار وكرهت رامبو لهذا السبب – **ليس فقط** –. ليس الأمر متعلقاً بالنشر، إنه متعلق بأنني لا أريد أن أغادر عمراً دون أن أتركني فيه. لا أريد أن أنسى كيف كنت في العشرينيات. أريد أن أبقى عالقة هناك.. أراني متى شئت. أريد أن أترك مسمار جحا في كل سنة، لأعود إليها متى أحببت، كي لا أخاف أن أتغير.

أحضرك من غيابك، أريك ما كتبته اليوم وقلبي يرتجف، تقرأه ثم تندهش.. تشجعني.. فتغادرني حماستي للأبد.

في الواقع أن أبدي يختلف عن أبد الآخرين، لذلك.. فبعد انتهاء أبدي أعاود مرة أخرى.

وأيضاً، أنت تعرف أنك لست سوى غائب، أنا وحدي من خلقه لغايات الكتابة، لا أكثر.

ارتباكي يمنعني من ترتيب الأشياء، لا طاقة لديّ على تنسيقها. الأشياء كلها داخلي، كثيرة.. بل مضحكة لكثرتها. لا ينقص إلا أن أخرجها، أرتبّها على أوراقي. لكني لا أحتمل زمن الكتابة، ولا إعادة كتابة نص قديم– **لمَ أشعر بالمهانة حين أفعل؟** – ليبدو أجمل، وإنني لا أنتظر شيئاً بعد هذا كلّه.. عجيب !!

أي تأرجح بين أقصى اليأس من كلّ شيء.. وأقصى الاندفاع لأي شيء.

يداي لا تلحقا دماغي، إنه يتحرك مثل طفل شقيّ. إنني أنتشي من هذه الاضطرابات.. ويداي لا تلحقا دماغي..

سأصرف النظر عن هذا العمل كلّه.. إنني لا أستطيع.. لا أملك الهدوء.

صار نص المرأة فشلي.. ماذا يهم؟ بل يهمني جداً، إنني أرى امرأة فأكاد أصرخ بها.. توقفي.. إن فيكِ من نصيّ شيئاً.. انتظريني لأدركه.

وأملّ مني.. ومن فشلي.. ولا أملّ من نصي، بل إنه يدهشني أحياناً، ثم يغضبني لسذاجته. على كلّ لم أزعج أحداً به.. فما زال خاصاً بي فقط.

كان يؤرقني أن أعيد صياغة روحي.. كيف نعيد صياغة التفاصيل الكثيرة دون أن نزوّرها أو نلغيها؟ أنا؟ أطغى على تفاصيل؟.. حتى أنني أخجل لو..

لمَ أخجل من السهولة.

قوانين هذا الكون تزعجني، وأحياناً تؤرقني، رغم أنني عصية على الأرق، إلا أن بعضها يسبب لي شعوراً بأنها تحتقرني. تحتقر بالذات قدرتي على اتخاذ قرار ما دون أن يكون اللاقرار هو الصواب في النهاية. دوماً اكتشف أنني لو لم اتخذ أي قرار.. فإن ذلك سيكون أفضل مما فعلت.. بغض النظر عما فعلت.

ثم لماذا يكون مصير الأشياء هو الانتقال من حالة الحركة إلى الموات؟ حسناً.. بإمكاني فهم ذلك على قاعدة فيزياء الأشياء، لكن بشرط أن أستطيع تطبيق هذه القاعدة على كل شيء، وهذا ما أفشل به دوماً. ليس ممكناً الاستعانة بقوانين المادة دوماً، فقد يصدف -**مجرد صدفة** – أن ينطبق قانون ما على حالة ما، وأنا لا أستطيع الاعتماد على الصدفة لتفسير أي شيء. لذا، فأنا أكره الصدفة.. أكرهها كثيراً.. لأنها.. لأنها أيضاً تحتقرني. في الواقع أنني أكره كثيراً من الأشياء. بالنسبة للأشخاص لم أقرر بعد إن كنت أكره أحداً أم لا.. إن لدي عنجهية فائقة تمنعني من التعامل المباشر مع الأشخاص، وبالتالي يصعب على أحد إيذائي. وهكذا فلمَ أكره أي شخص إن كان الأمر كذلك؟ سأتحدث عن هذا فيما بعد، أما الآن فإن الصدفة التي تستفزني تضغط عليّ، أنا لا أستطيع قبول هبات الصدفة مهما كانت رائعة.. أكره عدم الاستحقاق هذا الذي هو أساسها – **هل كان كونديرا هو من أفسد فرحي بقدرتي على إطلاق جملة جميلة من نوع " لا أستطيع قبول هبات الصدفة مهما كانت رائعة.. أكره عدم الاستحقاق هذا الذي هو أساسها "، بلى، ما ذنبي إن قالها قبلي؟**

يجب أن ألحق، ألحق الكلمات قبل أن يقولوها كلها، ألحق القصص قبل أن تنضب تلك النبعة الرائقة، إنهم يفسدون كل شيء، ليس بحرق الفكرة، بل بصياغتها بجمال يصيبني باليأس –.

إن هذا ممل.. والأكثر مللاً هو شعورك المستمر أنك كنت دوماً ساذجاً – **هذا الشعور الممتد منذ خلقت إلى ما قبل هذه اللحظة مباشرة وباستثنائها** – لكن هذا لا يعني أنني راضية عن نفسي في هذه اللحظة بالدرجة التي قد يبدو فيها الأمر كذلك. لا، الرضى هو كلمة غير دقيقة، قد تكون الكلمة الأنسب هي الاقتناع.. لا.. ليست موفقة كذلك، إنه شيء سأصفه دون أن أرهق نفسي في إيجاد اسم له.. إنه الموافقة على ما يصدر عني تحت شعار أنه صدر وانتهى الأمر.. هذا يعني أنني لا أفكر بالأشياء قبل فعلها؟.. لا.. بالعكس.. فأنا أفكر كثيراً في الأشياء.. في كلّ شيء تقريباً.. كثيراً.. كثيراً.. لكنني أفكر في الأشياء جميعاً بنفس الوقت، ولا أصل لأية نتيجة في أي شيء فكرت به. وبما أنني لا أصرف وقتاً على استخلاص النتائج، فإن هذا الوقت يخصص للتفكير في الاحتمالات.

لعبة الاحتمالات كانت لعبتي الصغيرة، أمارسها تقريباً دوماً.. في كل شيء.. في كل مكان وفي كل موقف. كنت أحاول حصر جميع الاحتمالات التي قد تحدث، أفكر كثيراً حتى لا يفلت مني احتمال واحد، مهما كان الموضوع.

أقف في الشارع بانتظار الباص.. أقف بلؤم. أبتعد عن الموقف في الاتجاه الذي سيأتي منه الباص مسافة كافية ليقف لي قبل وصوله للموقف. وأبدأ بإحصاء الاحتمالات الممكنة.. سيأتي باص مؤسسة النقل أولاً ويقف لي، سيأتي باص المؤسسة محشوراً ولن يقف لأن لا مكان لقدم واحدة إضافية فيه، سيأتي ويكون فارغاً لكنه لن يقف لأن السائق لن يعجبه شكلي، ستمر سيارة أحد أقربائي قبل الباص رغم أن لا أقرباء لدي هنا، ستمر سيارة شخص لا أعرفه وسيشفق عليّ لسبب لا أعرفه وسيقف لي، سيكون حظي رائعاً اليوم ويمر أحد باصات الكوستر الصغيرة قبل باص المؤسسة، سينزل منه شخص ما فأصعد مكانه. ثم وحين أقتنع أنني استنفذت كل الاحتمالات الممكنة تبدأ المرحلة التالية في اللعبة، أبدأ باحتمالات كلّ احتمال.. إذا جاء باص المؤسسة أولاً وتوقف، سيقف أمامي تماماً لأنني أرتدي تنورة قصيرة، وسائقو مؤسسة النقل هم أكثر الفئات تقديراً للتنانير القصيرة نظراً لعلو باب الباص عن مستوى الأرض والجهد المبذول من صاحبة التنورة في الصعود، لا شك أنهم يقدّرون الجهد بشكل عادل. سيقف بعد أن يمر بي بعشرة أمتار ليمكنه مراقبتي في المرآة الجانبية وأنا أسرع لألحق به وبالتالي يكسب وقتاً أكبر، إنهم مبدعون، لا شك في ذلك. لو كان لدي دماغ كالذي يمتلكون لاستطعت إيجاد مزيد من الاحتمالات للعبتي ولما أفلت مني أي احتمال. لن يقف أبداً لان السائق من الإخوان، سيمر بي بعصبية وسيسمعه الراكبون المحظوظون في الباص يلعنني وطرف عينه معلق بالمرآة الجانبية على اليمين. سيمر ولن أصعد أنا لنفس السبب الذي جعله يقف، فحافلات مؤسسة النقل متمايزة كالبشر تماماً، تكتسب تمايزاً مع الزمن، يصبح لها طابع شخصي، وليس المقصود هنا حبيبة فؤاد، والكف الأزرق ذا العين في منتصفه، المعلق ليثقب عين الحسود، ولا " إقْصُدْ"، ولا الستائر المخملية الخضراء فهذه كلها رفاهيات حافلات الكوستر، ولا مجال لها في فلسفة حافلات المؤسسة حيث.. الضروري فقط، أربع عجلات لتسير وشيء فوق العجلات لغايات دحش البشر فوقه. ما قصدته إنها مستويات، لا أدري كيف تختلف مع الزمن، بيد أن الزمن لم يكن يقصر تأثيره على الأشخاص فقط، فالتغيير الأول الذي تلحظه النساء.. لا.. ليست النساء.. الكلمة عامة.. الصبايا ذوات التنانير، هو أن باب الحافلة يختلف ارتفاعه من حافلة لأخرى مع مرور الزمن، وهذا ما يجعلهن في بعض المرّات يقررن عدم الركوب حتى لو توقفت أمامهن مباشرة. في هذه الحالة تجري موازنات سريعة في رؤوس ذوات التنانير، يدخل فيها زمن الانلطاع في انتظار الحافلة، وأهمية الوقت أو عدم أهميته في المشوار المقصود، ويدخل فيها كذلك درجة جحوظ عيني السائق ودراسة

مستعجلة لنفسيته من شكله وتقييم سريع لراكبي المقاعد الأمامية، إذا كانوا من النساء أم المسنين أم شباب، وإذا كان الاحتمال الأخير فنوعية هؤلاء الشباب.. عمال.. طلاب.. مشيحين بوجوههم أم مستغلين لارتجاجات الحافلة. وبطبيعة الحال فإن الوقت الذي تستغرقه ذوات التنانير في هذه الحسبة.. يجعلهن يبدين بليدات، أو بطيئات الحركة، أو وقحات يتدللن على باص بأكمله في خطوهن المتمهل، واحتمالات أخرى تلصق بهن حسب درجة إجادة السائق والركاب للعبة الاحتمالات أيضاً. وهذا أيضاً من الأشياء التي تضايق، فإن لم تمتلك ذات التنورة ما يكفي من الشكل المقبول لامتصاص حنق السائق والركاب، فإن الصعود يغدو أمراً في غاية الإذلال حيث ستضطر لسماع تلميحات عن الدلع والبطء والناس التي لا تمتلك الحس.. طيلة الطريق إلى أن تصل وجهتها، وبالطبع فذلك لن يكون عزفاً منفرداً من السائق بل سيشاركه ركاب المقاعد الأمامية، وممسكو أحزمة السقف الأماميين في ذلك، كلّ حسب احتمالاته وإتقانه لها. أما إذا امتلكت صاحبة التنورة وجهاً جميلاً أو كانت عادية الوجه لكن بعينين وقحتين، فإن هذا تعويض مناسب عن الضرر الذي لحق بسكان الثلث الأول من الحافلة جراء انتظارهم وضياع أوقاتهم الثمينة. أما إن جمعت الحسنيين.. جميلة وتترك لعينيها حرية الحركة دون أن تثبتهما في نقطة واحدة من الباص أو النافذة - **إن كان حظها حسناً ووجدت مقعدا إلى جوار النافذة** -.. فإن سكان الثلث الأمامي سيختلفون كلياً.. يصبحون ودودين مع بعضهم البعض دون أن يوجهوا كلاماً مباشراً لها، وقد يطلق أحد المراهقين تعليقاً مضحكاً مثلاً على أي شيء في الطريق أو في الحافلة، وهنا يجب أن تقوم ذات التنورة بموازنة جديدة.. فإما أن تصرّ على أسنانها وتعطي لوجهها طابع الشرود وعدم سماع التعليق، فتأمن المزيد من التعليقات أو التمادي، وليس هذا المكسب الوحيد في هذا الاحتمال، فإنها قد تجد عريساً أثاره طول تنورتها المختصر وفي ذات الوقت طمأنهُ سلوكها المتحفظ. أو تحاول إخفاء ضحكتها مما يدفع المراهق للانتشاء وإطلاق العنان لنفسه ودخول مشاركين جدد إلى الحلقة، أو تضحك وتنظر لصاحب التعليق، وفي هذه الحالة تصل الأمور في الحافلة للذروة، فلم يعد هناك مجال للتردد. وتبدأ المباراة في خفة الظل، ويصبح هدف كل معلق هو انتزاع قهقهة عالية منها وشتائم بأصوات منخفضة من مسنّي الثلث الأوسط على النساء اللواتي لا يخجلن. وإذا كانت ذات التنورة من اللواتي تسيل دموعهن من الضحك فهذا مغنم كبير للمعلّقين والصامتين، فصورة وجه جميل يضحك كافية كمخزون للاجترار لعدة ليالٍ فكيف إذا كان إلى جانبه دموع وعينين مبتلّتين. إن هذا يمنح أشد المخيّلات محلاً.. أفقاً واسعاً لترميم هاتين الصورتين وإضفاء سيناريو عليهما بحيث يبدأ الزحف للاقتراب قدر الإمكان من مقعدها والترقّب للحظة نزولها من الحافلة.. وملاحقتها.. و.. و.. واحتمالات أخرى تعتمد على حماس الملاحق.. وظَرفه. أمر يشغله لفترة ليست بسيطة وبالتالي إخراجه من مله وضجره ووجود نواة ما

يستند إليها بقوة لتأليف سلسلة من الكذبات التي تعتمد على خياله وعلى تصديق الباقين له.

كان يحدث أن أنتظر أكثر من ساعة دون أن أحس بوطأتها.. غارقة في احتمالاتي، ولا يأتي أي من هذه

الاحتمالات. وقد يحدث أن تمر بجانبي سيارة خاصة ترشقني من قمة رأسي إلى كعب حذائي بالطين، ويتسرب الماء عبر كل قطعة ثياب أرتديها، فيوشك قلبي أن يتوقف من البرد واضطر إلى العودة مرة أخرى لتغيير ثيابي واستدانة أجرة تاكسي.. لأتمكن من اللحاق بالساعة، ولأتمكن من الاستمرار في عملي فترة أكثر بقليل من الفترات التي قضيتها في كل عمل استلمته، وبالتالي تنهار كل احتمالاتي. ومع أنني بعد ذلك أُدخِل في احتمالاتي هذا الاحتمال الجديد ومشتقّاته التي تبدأ من تعطل التاكسي وفقداني لوظيفتي إلى محاولة اختطافي ثم إنقاذي على يد شاب شهم مثالي المواصفات. إلا أنه تظل هناك احتمالات لعينة تفلت مني.. مثل أن لا يحدث أي شيء على الإطلاق. فسائق التاكسي لا ينظر إليّ نظرات مريبة، لا يتوقف دون مبرر، لا يغيّر الطريق زاعماً الاختصار، يعبث في مفاتيح الراديو أمامه وينفخ بغضب.. وأصل.. هكذا دون أي شيء آخر.

ربما بسبب هذه الاحتمالات التي مهما حاولت حصرها ظلّ أحدها يفلت مني، مستنزلاً كلّ لعناتي عليه لأني لم أفطن إليه. وربما بسبب أني فشلت في إيقاف فَلَتان الاحتمالات هذا.. توقفت عن اللعب. ربما أنني أتقنتها كثيراً.. كثيراً جداً إلى درجة فقَدتْ معها بهجتها. صار يحدث أحد الاحتمالات التي توقعتها دوماً وبالتالي أصابني الملل.. وتوقفت. ربما توقفت كذلك لسبب آخر لا علاقة له بالإتقان أو الفشل وهو أنني أصرف جهداً كبيراً ووقتي كله تقريباً وأنا أفكر، دون أن أُضفي صبغة شخصية على احتمالاتي. أي أنني أحصرها بموضوعية دون أن أتمنى حدوث أحدها. قد يبدو هذا غير صادق، لكنني كنت أكثر استغراقاً في نشوة الحصر من أن أضيع وقتي في تمني حدوث شيء ما محدد.

المهم أن كلّ ذلك التفكير لم يكن يقودني إلى شيء. لم تكن ثمة قرارات ولا موانع، ولذلك فعندما أصر مديري على توصيلي بسيارته الأمريكية الفارهة بعد انتهاء الدوام، لم يكن لدي رغبة بذلك ولا محاذير. كان قد خَطَر لي أنه قد يعرض عليّ ذلك، ليس بسبب مقدمات منه فإنني بالكاد كنت أراه، ولا بسبب رغبة مني فقد كان قبيحاً ومسناً وذا رائحة لم تفلح المستحضرات التي أغرق نفسه بها في إخفائها، لكن.. هكذا.. خطر لي هذا الاحتمال ولم أقرر ما الذي سأفعله لو حدث فعلاً. وهكذا.. فذات مساء نادى بصوته المتخم عليّ وأنا

أوشك على المغادرة وأخبرني أنه سيوصلني. حاولت التملص من هذا الاقتحام غير الممهد له لخصوصيتي، ولم أفلح. اكتشفت أنه عنيد على عكس ما يوحي به شكله الهلامي. وبما أنني لست من الفتيات اللواتي يمكن أن يُظهرن خوفاً أمام أي شخص آخر حتى لو اقتضى الأمر أن يخفن، فلم أسمح لذرّة خوف أن تشوب صوتي. عارضت الأمر بحجج منطقية دون ارتباك ولا إلحاح، رغم أنني كنت أتمنى ألا يفعل، فلم يكن بمقدوري تخيل رائحته في مكان مغلق كالسيارة، ولا كنت أرغب في التعرض للمشاكل التي قد يسببها إيصاله لي في وقت متأخر وفي سيارته. ومع ذلك فحتى حين فطن إلى ذلك وسألني إن كان إيصاله لي يُحرجني.. نفيت بإقناع. لم أكن من النوع الذي يقبل صورة مثل هذه عنه لدى الآخرين. لو طرح سبباً آخر لا علاقة له بالأعذار العادية التي قد تختلقها الأخريات لوافقته وتخلصت منه.. لكن هكذا؟.. لم أكن أحتمل أن أكون عادية. ربما هذا ما كان يجعلني أتقبل نفسي جيداً.. نعم.. قد أكون من أكثر الأشخاص رضى عن أنفسهم.. ليس حباً بالذات، لكن احتراماً لاختلافي، وبالتالي لقراراتي الناتجة عن هذا الاختلاف مهما كانت.

على كلٍّ أنا لم أتخذ قرارات لأعرف إن كنت راضية عن نفسي أم لا من أجلها، بل أظنني أحب نفسي بطريقة لا تُصدّق وأبرر لها كلّ شيء ولا أحاسبها على شيء قط مهما كان. ولكن.. لمَ ينبغي أن أفعل ذلك؟ أقصد أن أحاسب نفسي بقسوة أو بلين.. لقد فعلت ذلك وأنا أصغر عمراً. كنت ساذجة. إلى شهر خلا، قمت بتصرفات تفاجؤني الآن بسذاجتها.. هل أكون الآن أنضج؟ أم أنني بعد شهر سأقول الشيء ذاته؟ كم أكره ذلك، لم أكون ساذجة وغبية إلى هذا الحد؟ كل صفاتي لا تعجبني.. كأنني حين خُلِقت طُلِب مني أن أضع دائرة حول الصفات التي أرغب فيها وخُلقت بكل الصفات التي لم أخترها. كل الدوائر التي لم أضعها واحدة واحدة. كنت أريد أن أكون جميلة.. بالحد الأدنى على الأقل.. ذات جسد جميل.. ممشوق.. وطويل – **وهناك أسباب خاصة لهذا الطلب بالذات سأعود إليها لاحقاً إن تذكرتها** –.. ذكية.. ولعوب.. ذات عينين ساحرتين. كنت أريد أن أمتلك إحساساً بأنوثتي.. إحساس طاغٍ يجعلني أشيعه أينما حللت، وكنت كنوع من التوازن أريد أن أكون فطنة وذات عقل راجح، فلا شيء أسوأ من أن أكون جميلة وغبية.

إذن.. كان هناك ما هو أسوأ مما أنا عليه. هذا أفضل.. فدمامتي تجعلني لست بحاجة لحماية من الآخرين. ومع ذلك لم أدرِ لمَ أصر المدير على إيصالي بسيارته. وبما أنني امرأة بلا فضول، فلم أفكر في سبب إصراره كثيراً، بسرعة أجريت حساباتي، حسبت المخاطر والاحتمالات،كانت سرعة الحسبة و الحسبة نفسها غير ذات قيمة تقريباً.. بل أبداً. فحتى لو كانت أسوأ الاحتمالات هي أكثرها رجحاناً ما كنت لأظهِر خوفي منه، لذا صعدتُ بثقة إلى سيارته، لم أحاول سحب تنورتي وضبضبة ساقيّ، ليس كنوع من الإغراء، بل خوف أن يفهم أنني خائفة منه أو أتعامل معه كرجل.كانت هذه لعبتي المفضلة.. والقاتلة في آن معاً،

أن أتعامل معه دون الحرج المعتاد بين رجل وامرأة لا ألفة بينهما - **إنه هكذا.. الرجل غريب وأنا خائفة. الرجل يظن أنني قد أخاف منه. أنا أمثّل الطمأنينة، أمثّلها بإقناع تام. الحيرة تطلّ من عينيه، فيدفشها للخلف كي لا يبدو غبياً. أتعامل بمرح وراحة وأمان، فيظن هو أن أفكاري عنه أفضل مما هو في حقيقته، يجد الفرصة مناسبة ليكون نظيفاً وليحقق توقعاتي، يسرّه أن له هذه الصورة المشرقة عندي، فيؤجل محاولاته بغض النظر عن طبيعتها إلى مرحلة لاحقة يتصور هو، استناداً لفكرتي التي يتوقعها عنه، أنها ستمكّنه من التعمق أكثر فأكثر في علاقته معي. أسحب العاديّة لتسود بيننا.. فتثبط همّته وتشرق صورته في عينيه.. دَوَا !** - كما لو كان فتاة أخرى، أو أم إحدى صديقاتي توصلني بسيارتها. رغم أن لا صديقات لدي على الإطلاق، أو رغم أن جميع أمهات صديقاتي، جميعهن، من نوعية لا يمكن أن تمتلك سيارة في يوم من الأيام. فأنا أصنّفهن ضمن شريحة ال " شروش - جمع شرش". ومع أنني لم أتعمد أن يكنّ كلهن من هذه الشريحة، فإن هذا شيء منطقي جداً، فليس من المعقول أن تكون صديقاتي جميعهن، دون استثناء من شريحة سكان باصات مؤسسة النقل وتكون أمهاتهن من شريحة الاستقبالات. هذا شيء طبيعي. أما لماذا تنتمي صديقاتي إلى هذه الـ.. حسناً.. إنهن لسن صديقات بالمعنى المتعارف عليه. في الأساس أنا لا أدري ما هو المتعارف عليه في هذا الخصوص، إنهن فتيات يتصلن بي من وقت إلى آخر ويطلبن رؤيتي، فأتثاقل كثيراً.. كثيراً جداً وغالباً ما أعتذر، ولكن إذا ذهبت أحياناً، فإنني أجد شيئاً من الراحة في وجود أشخاص يتحدثون عن أشياء كثيرة غريبة وجديدة. فأقرر أن لا أتثاقل في المرات القادمة وأن أوافق على رؤيتهن دون تردد. فقد كانت أحاديثهن تمنحني أرضاً جديدة لألعابي، كانت مواضيعهن لا تخطر ببالي مما يزيد فرص الاحتمالات غير المطروقة، ومع ذلك فالصحيح إنني لم أذهب قط إلى أيٍ من مواعيدهن الغبية. لم أفعل ذلك ولو مرة واحدة، ولذا كنت أُفاجأ كلما اتصلت إحداهن بي، يدهشني إصرارهن، ولا أعرف ما الذي يدفعهن للاتصال بي المرة تلو المرة. ورغم ذلك فإنه أنا من كان يترفع عن تلك اللقاءات التافهة حيث يصمتن ولا يعود ثمة ما يقال سوى الاستماع إلى كركعة أمعائي. لم أكن أعرف هل يكركع الآخرون مثلي أم لا؟ كانت هذه من المشاكل الرئيسية في حياتي، بل ربما كان لها التأثير الرئيسي على مستقبلي كله. بالأحرى أنه لم يكن لدي مشاكل رئيسية في حياتي. كانت هذه المشكلة الوحيدة التي صادفتها، فلم يكن مديري يتوقع أن فتاة فائقة الجمال مثلي.. أنيقة.. ورشيقة.. ذات صفات تحسد عليها، يمكن أن يكون لها أمعاء.. وتكركع، وبأصوات أبشع من عجوز عمرها تسعين عاماً. لن أعرف أبداً إن كان سمع أمعائي أم لا، الذي أعرفه أن هذه الكركعة الغبية التي دمرت حياتي كلها، اضطرتني للحديث المتواصل معه، دون أن أترك ثغرة واحدة يمكن أن يسمع أمعائي من خلالها. تحدثت عن العمل وعن أشياء أخرى جادة ومهمة، ولم يفتح فمه. لم يكن بإمكاني أن أتركه يتحدث،

فرغم صوت السيارة والضجة وصوت حديثه، فإن صوت أمعائي كان سيعلو دون أدنى شك. كان قد شغّل جهاز التكييف ليستمتع ربما برفاهية كونه غني أمامي، وربما لأنه لا يحتمل رائحة نفسه، وربما لأن الحر كان قاتلاً. وبما أنه لا يجب تفسير تصرفات الناس دوماً على أنها رد فعل علينا أو أنها موجّهة لنا، لأن في ذلك إضفاء لأهمية لا نمتلكها علينا، فقد رجّحتُ الاحتمالين الأخيرين، ثم اعتذرت منه بأنني لا أحب التكييف – **لم أقل له أن هواء المكيفات الثقيل كان يجلس فوقي، هناك، ويدفنني في الأسفل. وأنني لثقله، لم أستطع أن أتنفس، فاضطررت طوال العمر الذي عشته، هناك، لأكل الهواء، الثقيل، وأن رائحة الهواء الثقيل ما زالت تملأ معدتي وإنها تصعد في بلعومي كلما أحسست بالهوان، وأن ضجيج المكيفات كان ال back ground للعمر الذي كنته، هناك، أحاول رفع رأسي من تحت جثة الهواء الثقيل وأفشل** – وفتحت النافذة المجاورة لي استقاءاً لأي صوت قد يغطي على أصوات أمعائي وسط ريبته وخيبته واستغرابه المبطن. لم يكن صوتاً واحداً ذاك الذي لأمعائي، كانت مجموعة متكاملة ومريبة من الأصوات التي قد – بقليل من سوء الظن – تفسّر بطريقة مبتذلة يرعبني تخيلها، ولذا لم أسمح له قط بالحديث. تحدثت.. وتحدثت، عن كل ما ليس شخصياً.

قد يساء تفسير النساء في كثير من الأوقات ويُتهمن بالثرثرة، إلا أن هناك أسباب كثيرة لا علاقة لها بالمنطق تحكم سلوك الآخرين أو ربما أنا فقط، سلوكي أنا فقط. ووسط رعبي من كركعتي، وفلسفتي القائلة بالعادية في مواجهة الأفكار أو النوايا السيئة للرجال، تحوّل مديري إلى إحدى ذوات الشروش. لم ألملم تنورتي لأنني كنت أكتف ذراعاي على بطني محاولة قمع الأصوات، مع أن تكتيف الذراعين على البطن هو آخر وضع قد أرغب في اتخاذه، إلا أنني كنت كثيراً جداً ما اضطر إليه. ولتكتيف الذراعين على البطن عندي ارتباطات قد تبدو غريبة وقد تبدو متوقعة تماماً، فتكتيف ذراعيّ على بطني يوحي لي أنني عزباء مقرقدة، ترتدي دشداشة وتنتظر عريساً. ومع أنني لم أكن أرتدي دشداشة ولم أكن مقرقدة ولا أنتظر عريساً.. ولم أجلس يوماً واحداً في أي بيت لأقوم بهذه المهمة، ولا أعتقد أن أي إنسان عاقل سواء كان عريساً أم لم يكن سيفكر في قضاء ما يظنه بقية عمره معي. على الأقل إذا كان هذا الإنسان العاقل بمواصفات غير مأساوية، وفي النهاية.. ما حاجتي لعريس؟.. لم يكن الأمر ملحاً. أي أمر؟ لا أدري.. لكن لم يبدو لي أن بي حاجة لشخص آخر يلزق لي ليل نهار، وأكثر من ذلك أن هذا الشخص سيكون ديم الخصوصية أمامي وسيتوقع مني الشيء ذاته أمامه، وهذا ما لا يمكنني مجرد التفكير به. ما يمكنني التفكير به هو سبب عدم وجود بدائل عن تكتيف ذراعيّ على بطني. تتلاشى الأوضاع الأخرى جميعاً، تُقفِر مخيّلتي وتنعدم الأشياء أو الأماكن التي قد أسند ذراعيّ إليها.
هكذا..جلست بشكل يقابله تقريباً في السيارة محاولة استكناه سماعه لأي صوت، منتظرة

أدنى حركة منه، متخيّلة موقفي لو سمع كركعتي.. فيندفع الدم إلى وجهي مسبقاً، مضفياً عليه مزيداً من الحيوية والإثارة. الجميع من حولي كانوا يظنون دوماً أن وجهي أحمر بشكل غير طبيعي، وكانوا يقولون أن لي وجهاً خَجِلاً، مما يدفعهم للتعلّق بي أكثر وأكثر.

كنت أخاف من كركعتي إلى درجة أنني أفقد السمع حين تبدأ أمعائي بالحركة، ولذلك لم أستطع أبداً الجزم إن كان الصوت مسموعاً أم لا. لكن كان هناك ما يحيرني دوماً.. ردّ فعل الآخرين على تعابير وجهي حين أوشك على الكركعة. كنت أحشو معدتي بالطعام والسوائل قبل أن أدخل إلى أي مكان مغلق، ولكن وقبل أن يفتح أحدٌ فمه، تبدأ أمعائي بالتحرك وأوشك أنا أن يغمى عليّ، أضغط معدتي أكثر وأكثر حتى تترك ساعتي وخواتمي الكبيرة أثراً على بطني من شدة الضغط، ويكون وجهي على وشك الانفجار، ويبحلق الآخرون في وجهي المتألم بغباء، دون أسئلة، دون اندهاش لهذا الألم الذي يعبث بي وهذا الخزي الذي يهددني، يحركون شفاههم فلا أسمع – **أنا في القاعة، يتلون وجهي بألف لون. المحاضِر قبالتي يرى ألمي، تدقر حدقتا عينيه على وجهي فلا يستطيع استعادتهما حين يمشي، لكنه لا يتوقف في ذات الوقت. ألا يشاركني هذا الألم الخاص بي وبه فقط دون الآخرين؟ كان الآخرون الذين أنتمي إليهم والذين أجلس في صفهم والذين معي في مواجهته لا يرون ألمي ولا يرون انقباضاتي، بينما هو الذي في مواجهتي كان مجبراً على مشاركتي، ولم يشاركني، هل حين لا يعرف الآخرون أنك تشاركني ألمي تستطيع أن تتغاضى عنه ولا تأبه له؟ هل انتظار الآخرين لردة فعلك هو ما يجعلك إنساناً أو وحشاً؟ أنا والآخرون جميعاً نقابلك، أنت في مواجهتنا، وأنا جزء من كل يواجهك لكن ألمي يشاركك وأنت هناك، أمامنا جميعاً، لكن جباناً أمامي فقط. لو كانت نظرتي تشتهيك هل كنت تلقي اشتهائي وراء ظهرك وأنت تدور أمامنا كالملسوع؟ ألم تكن لتشاركني رغبتي؟** – وأحسّ أعين الجميع مصوبة عليّ.. فأخرج. وبالطبع لم يكن بوسعي حتى محاولة التفكير بطرق أخرى مثل أن أجرؤ على تجريب معدة فارغة، كان ذلك فوق طاقة خوفي. جربت العلاج النفسي، جربت أن أتخيل أن بإمكاني إهمال الآخرين، لكن كركعتي كانت ذات أصوات ملتبسة ولم يكن هذا مما يمكن التسامح بشأنه. لذلك توقفت عن الذهاب لأي مكان مغلق به آخرين، بما في ذلك متابعة دروسي في الجامعة، وبالتالي رسبت ثم فصلت من الجامعة، ولم أحاول أن أقدم أية أعذار لأي شخص. في الأساس لم يكن هناك أشخاص مهتمون بأي عذر.

وهكذا تحدد مستقبلي المهني البائس..

بدأت أفتش عن عمل، عملت في أكثر من مكان، كان الحصول على عمل أمر سهل جداً بالنسبة لي، ربما بسبب شكلي الذي يغري أي صاحب عمل بالسيطرة عليه، ربما بسبب ثقتي الهائلة التي كانت تجعلني أبدو من اللواتي يردن العمل فقط لغايات التسلية، كنت أبدو كذلك بسبب يأسي مني ومن قدرتي على الاستمرار في أي عمل مهما كان. كان أكثر

ما يزعجني هو المقابلات، حيث أضطر لتكثيف نفسي وإيصالها في الخمس دقائق الأولى من المقابلة حتى لا تطول. لذا، كنت أينما ذهبت أحصل على عمل، لكني لا أستمر به غالباً إلا ليوم واحد.. وذلك لانعدام خصوصية المكان الذي كانوا يمنحوني إياه، فإن أحداً لم يعطني غرفة مستقلة ولم أكن أستطيع الاحتمال. وفي النهاية كنت دوماً أنصرف دون حتى أن أبلغهم بقراري. لذا قررت هذه المرة أن أثبت في هذا العمل لأتجنب لمزيد من المقابلات والوظائف ذات اليوم الواحد، وأيضاً لأنهم هذه المرة منحوني غرفة مستقلة بسبب كوني الفتاة الوحيدة بينما الموظفين الآخرين جميعهم رجال، وربما لأن المدير وقد أصيب بالدهشة أو الخيبة في ذلك اليوم الذي أوصلني بسيارته أراد أن يعزلني عن الاحتمالات التي خطرت في ذهنه.

حتى الآن لم أعرف ما الأثر الذي تركته لديه، أعرف فقط أنه لم يعد إلى ذلك الاقتراح مرة أخرى ولم أدرِ السبب. هل هو منظري الواثق في السيارة؟ هل هو حديثي المتواصل وإعفائي له من محاولة تركيب جمله الفاشلة دوماً؟ هل هي أصواتي الملتبسة؟ هذه المرة لم أكن معنية كثيراً باحتمالاتي المتعددة، كنت معنية أكثر بالحفاظ على وظيفتي، فقد أستطيع يوماً ما أن أوفّر ما يمكّنني من شراء سيارة ما، لأن الزمن الذي كنت أقضيه في الباصات أو في انتظارها أو في المشي كان أكثر من نصف اليوم. كنت في الصباح انتظر باص المؤسسة أولاً في الحارة رقم ٢، ثم يستغرق الباص ساعة كاملة ليصل إلى دوار المدينة فأنزل هناك ثم أسير إلى المكتب الذي أعمل به، ثم وحين تبلغ الساعة الثانية ظهراً انتظر الباص وهذه عملية مضحكة وغير مجدية في شارع باذخ مثل الجاردنز- **سابقاً** -، أو أسير إلى حديقة المدينة، حيث المكان الوحيد الذي يمكنني أن أقضي فيه استراحة - **استراحة؟** - الغداء. كنت أهرب كي لا تخنقني تلك الموسيقى التي تبثها الـ F.M بين الثانية والرابعة - **المعذرة يا تشايكوفسكي، كيف يمكن لي أن أحبك؟ وأنت المرتبط بذلك الزمن البليد، بساعتين من الاحتيال على الملل والعرق، ورائحة الوحدة والحمّامات. لم أكن أعرف أنها موسيقاك تلك التي تنبعث من الجهاز الملبّد بالأوساخ المزمنة في استراحتي المرهقة. وحين اكتشفت ذلك، كان الوقت قد تأخر لأعيد حبك** -.

كنت أخرج من مكتبي كي لا يحضر أحد من الموظفين في فترة الغداء ليتودد إليّ، فاضطر للجلوس معه في مكان مغلق. حاولت في البدء إفهامهم أنني أحب الانفراد بنفسي وأني لا أرغب في تقوية أواصر شخصية، فصاروا يحضرون إليّ زاعمين الاستفسار عن بعض المذكرات التي لم أكمل طباعتها أو بعض الملفات التي في غرفتي، أو عن أي شيء. يقفون في غرفتي حتى لو لم يوجهوا الحديث إليّ، وكان هذا كافياً لاستفزازي، وإطلاق العفاريت التي تجلس على كتفيّ. أعترف أنني كنت أستفزّ بسهولة من الآخرين. كان الآخرون يستمتعون برؤيتي غاضبة لأسباب لا أعرفها حتى الآن.. الجميع.. من أحبوني ومن

كرهوني رغبوا دوماً في رؤيتي أكاد أنفجر، وأعترف كذلك أن ردود أفعالي على الاستفزاز كانت دوماً غير طبيعية، تقترب من الجنون، كنت عنيفة ووقحة عندما أغضب.. وما أن أبدأ حتى لا أدري كيف أتوقف، لذا كان من الضروري دوماً تدخل الآخرين لتهدئتي، وكان من الضروري دوماً ألا أصل لهذه الدرجة من الانفعال. لذلك كنت أسير المسافة التي بين عملي والحديقة لأتجنب الآخرين واستفزازاتهم. لم أكن أحب الحديقة، كانت شيئاً خالياً من كل شيء أو كانت تشبه بيت امرأة أصابها وسواس نظافة من نوع حاد. هذا النظام الجارح.. والإقفار، البشاعة والحزن، كانت كأنها تستعجلني مغادرتها. كانت كآبتها تسري في أوصال الذين يخطئون بدخولها، لم يكن ثمة خضرة للعشب، الأزهار كانت بائتة، لم تكن الأشجار تشبه الأشجار، فكّرتُ طويلاً لمَ سموها حديقة ولماذا عامة، ربما أنها مشتقة من الفعل حدق، فقد كانت تحدق ببؤسائها الطارئين، وربما عامة لأن أشخاصها كانوا يجلسون على كراسيها المطلية بلون زيتي أخضر داكن يشبه ألوان الحمامات العامة، ربما لأنهم كانوا يظنون أنهم غير مرئيين من قبل الأشخاص الذين في الشارع خارج الحديقة، ربما لأن تلك الاقترابات المترددة والحذرة للعشاق كانت مشاعة للعموم، وربما أن كل سكان باصات مؤسسة النقل وباصات الكوستر التي كانت تسير على شارع الجامعة كانت تمر من وراء ظهور هؤلاء العشاق كما مرّوا هم من وراء ظهور أشياء كثيرة، فقد كان جميع سكان باصات المؤسسة يرونها تلك المحاولات لاقتناص شيء قد يسمى فرحاً أو رغبة أو حباً أو أي اسم آخر. وهكذا فإن هذه الحديقة غادرة أيضاً، حيث لا تكتفي بالإيحاء الغادر بالأمان لهؤلاء العشاق.. بل تفضحهم.. وأمام من؟ ولن يُفهم من كلامي طبعاً أنني أدافع عن هؤلاء الأشخاص، فإنني لم أجد أحداً منهم – **طيلة زمن ترددي إلى هناك** – يمكن أن يحِب أو يحَب، حسب مقاييسي بالطبع. كانوا مريبين دوماً، بعيون مذعورة للفتيات النحيلات بكحلتهن السائلة الدبقة التي ترسم شيئاً مدبباً على زاوية العين، ومناديلهن الحائلة السواد وتنانيرهن الطويلة الضيقة المسؤولة عن تلك الطريقة المضحكة في المشي، حيث الخطوات صغيرة وكثيرة، التنانير ذات الفتحات الخلفية التي تصبح أمامية عند الحاجة، وبعيون وقحة للشبان الذين لا يفوتون فرصة لأي شيء. كنت أمقت هذه الحديقة أكثر من أي شيء أو أي شخص، لكن بالإضافة إلى كل الاعتبارات المالية التي تمنعني من الجلوس في مطعم فإن النظرات المشفقة التي كانت تخترق ظهري وأنا أشرب القهوة وحدي وأتظاهر بالشرود والاستغراق في مراقبة السماء عبر النافذة كانت تسبب لي إحساساً حاداً بالكآبة لم يكن بوسعي دوماً احتماله. ما كنت أستغربه هو أنني لم أكن لأشعر بهذا القدر من الكآبة لو لم يشعر الآخرون بالشفقة تجاهي،كانت شفقتهم تذكرني أنني وحيدة. ولأنني لست ممن يمكن أن يدفعوا ثمن وجبة ثم يصابوا بانسداد النفس وفقدان الشهية فقد توقفت عن ارتكاب الحماقات المتمثلة في ارتياد المطاعم.

كنت أختنق في الأماكن المغلقة.. ربما لأنني أقضي أغلب وقتي متنقلة في الباصات أو سيراً على الأقدام ولأن أوقاتي الأسعد هي تلك التي في الشوارع رغم اضطراري للتقيّد بكثير من قوانين الشوارع المتعارف عليها. فمثلاً، كنت أرغب أن أقف في الشارع. هكذا فقط، أقف في الشارع، دون أن أنظر في الساعة ألف مرة في الثانية ليظنّ من ينظر إليّ - **الرجال بالذات** - أنني أنتظر أحداً ما وأنه تأخر، وأنني لم أقصد الانتقاص من رجولته بانتهاك قوانين تواجد النساء في الشوارع. هذه القوانين التي كان أكثرها تساهلاً هو القسدرة. يمكن للمرأة أن تقسدر - **باشتراطات محددة** - أما أن تقف؟ - **ماذا؟ هل الوقوف فعل ذكوري؟ هل للوقوف معنى انعدام الفعل أو الهدف وهو ترف ليس متاحاً للمرأة؟** -.
كنت أريد أن أقف في الشارع دون ذريعة، أقف حتى الملل، وليس في شوارع الأغنياء الذين يمنحهم ارتياحهم أن يتسامحوا مع كل شيء لا يناقض مصلحتهم - **إذن، في سقف السيل، من الذي أسيء أنا إلى مصلحته؟ القانون هنا أقسى، فالفقراء قد تسيء إليهم عبر مصالحهم أو أشياء أخرى، ربما اعتبارهم المعنوي الذي يستغني عنه الأغنياء بفعل غناهم** -.
كنت أريد أن أقف ساعة كاملة في سقف السيل في الثامنة مساءاً، أريد أن أضع كرسياً إلى جانب الشارع وأجلس عليه، أريد أن أشلح فردة حذائي الأيمن وأريد أن أضع رأسي بارتياح على مسند الكرسي الذي أجلس عليه ثم أريد أن يكون لي من انعدام الارتباك ما يمكنني من أن أغطس في أفكاري.

-**لا يواسيني إحساسي أن المستحيلات ليست بالضرورة ضخمة أو مهمة** -.

كان شعوري بالقهر والعجز دائماً، وبالمقابل كان الموت محرضاً شديد الفعالية أمام التردد. والمحصلة كانت أنني تعلمت الاحتيال على رغباتي المستحيلة - **مستحيلة؟ نعم.. كنت أتمنى أن لا أطلق أحكاماً نهائية، فلم أستطع** - بفضل نظرية المشابَهَة - **مسروقة بتصرف عن نظرية شَبَه صلاح السعدني**- أي.. أن أخلق لنفسي ما يشبه ما أريد، وأن أُقنع نفسي أن أفعل ما يقترب من رغبتي قبل أن أغادر للأبد، حيث لا سقف سيل ولا شوارع.
وجدت أن حل رغبتي البسيطة الساذجة والمثيرة لسلسلة مشاكل لا يمكن توقعها في حال تنفيذها هو في استخدام فكرة السيارة لأكون في وضع يشابه ما أريد دون أن أفعل ما أريد، ثم انسحبت لأفكر في أن السيارة هي احتيال ذكي على كثير من الأشياء. إنها فكرة فذّة استخدمها الجميع ولم يزعج أحد نفسه بالانتباه إليها. إنها اقتناص للخصوصية وسط عمومية الشارع، ليست خصوصية كاملة بالطبع، لكنها تكفي للشجارات بين الآباء وأبنائهم، لتنظيف الأنف باستغراق، لتصفية الحسابات بين الأزواج ولإشعال الحرائق بين العشاق. تحمل غرفتك وتدور بها، في الشارع ولستَ في الشارع. كانت هذه الفكرة

تعجبني أكثر من الراحة التي تعدني السيارة بها. وبما أن راتبي كان لا يكفيني لآخر الشهر وبما أنني كنت مضطرة دوماً للاستدانة والسداد على الراتب الجديد.. فقد كان التوفير لغايات شراء سيارة نوعاً من الأحلام التي لم تتطلب جهداً لإلغائها، بالإضافة إلى أنني ومع خبرتي المتزايدة يوماً بعد يوم بالشوارع والطرقات والسيارات التي تسير في الشارع.. لاحظت شيئاً مهماً، هو أن أشخاص السيارات كئيبون جداً. كئيبون بطريقة لا يمكن وصفها بدقة، خاصة إذا كانا رجلاً وامرأة.. مع أطفال في المقعد الخلفي أو دون أطفال. المرأة عادة تبدو الأكثر كآبة يليها الأطفال ثم الرجل، ولا أدري تفسيراً لملاحظة أخرى أدهشتني.. خاصة وأنا أفتقد وجود أحد حقيقي ملموس قربي، أن الرجال والنساء يبدون أقل كآبة حين يكونون مع آخرين من جنسهم، النساء دون رجال أقل كآبة والرجال دون نساء أقل كآبة. طبعاً أتذكر استثناءات لهذا، لكن جميع هذه الاستثناءات في أماكن مغلقة وليست في الطرق، يجب أن أفكر في احتمالات لهذه النقطة.. الرجال والنساء والكآبة والطرق. طبعاً لا يفوتني احتمال أن أكون لفقت هذه الملاحظة كوني لا أمتلك سيارة وليس من المحتمل أن أفعل. لكن.. نظراتهم عبر الزجاج، كأنها جوعى للماشين، كأنها تخبرنا كم هم كئيبون. ليست نظرات الرجال فقط، فهذه يمكن تفسيرها بطرق أخرى، لكن النساء.. لماذا ينظرن إليّ بحسرة؟ ليست نظرات التفحص المعهودة فقد كنت عادية الشكل تقليدية الملابس بصورة لا تحتاج لأكثر من لمحة منهن ليقررن عدم التفحص وعدم الحسد.

لكن.. كان يحدث أحياناً أن أكون جميلة، أو حتى متألقة، دون سبب واضح. ربما نمت أكثر من المعتاد، ربما لم يؤرقني مذياع أبي المفتوح طيلة الليل على الوشيش، ربما لأني يومها حظيت بغسول وجه صباحي من حنفية ككل البشر الطبيعيين ولم أضطر لخوض العملية المملة من تعبئة الإبريق الحديدي الأصفر الذي لا يد له ومحاولة الإمساك به خصوصاً في الشتاء حيث يكون ساخناً ولا يمكن الإمساك به من طرف حديدة اليد المخلوعة والسيطرة على وزنه الذي يزيد بسبب الكلس المترسب في قاعه بكمية تضاعف وزنه ثلاث مرات على الأقل. ماتت جدتي، وصار لي أخٌ إضافي بسبب خطأ في العدّ، انهار الاتحاد السوفياتي، تزوج عرفات، ماتت الليدي ديانا، وإنعام خلعت حجابها وشلّطت، صار لشارع الجيش في الزرقاء نفقاً، الصحف الاسبوعية سكّرت.. ومهما حدث من تغيرات فقد كان الإبريق الأصفر بيده المخلوعة وكلسه الذي يكفي لصنع صندوق من الطباشير والطعجة المسودّة على جانبه الأيمن.. موجوداً دائماً. كان إمساكه بيد والسكب على اليد الأخرى دون أن تتعب اليد الممسِكة، ومحاولة الإرغاء بالصابونة النابلسية على اليد المغتسلة، وتزحلُق الصابونة تحت الثلاجة وانحنائي لإمساكها وخروج صرصور مسرع تكاد قرون استشعاره أن تدخل في أنفي – **رغم أنني مباشرة أتقمص دوراً كوميدياً في مسلسل أمريكي وأبدي دهشتي أمام الصرصور وأهز رأسي بخفة دم أمريكية وأهتف - o.. o .. it's not my day** من

إحدى الطوبتين اللتين نضعهما تحت قاعدة الثلاجة حرصاً عليها من الصدأ ولتسهيل الشطف تحت الثلاجة رغم ما يتساقط منهما على الأرض من تراب وحصى.. كانت كل هذه الأشياء مؤشرات حظ سيء ونهار أسود، ليس لأن الصابونة صنعت لتذيق مستعملها الأمرّين بحكم كونها مربعة وثخينة، وليس لأن طوبتي الثلاجة فيهما ثقبان كبيران ترتع فيهما عائلات من الصراصير الناشئة التي تستغل ساعات الصباح الأولى الهادئة غير المزدحمة لتتمرن على دورها البذيء المقبل، وليس لأن لكنتي الأمريكية لا تساعدني في تقمص شخصياتي خفيفة الظل. كان وقوع الإبريق من يدي وانسكاب الماء الساخن على قدميّ ثم تنشيف الأرضية الصبّة والحفر الصغيرة فيها التي تتطاول على محاولاتك للخلاص بإخراج المزيد من التراب ورائحة الممسحة الزفرة – رغم الهايبكس والكاز الذي غُسلت بهما قبل مباشرتها العمل كممسحة بحكم كونها أصلاً قماشة تُلفّ بها الذبيحة قبل وصولها للملحمة – التي تعلق بيديّ.. كان النفاذ من هذه التفاصيل اليومية مجتمعة، مؤشراً صادقاً على الحظ الرائع الذي سيصادفني ذلك اليوم. كانت الحنفية هي المرآة الأولى لحظي، وكان ذلك طبيعياً ومنسجماً مع مقدار الحظ المسموح به لأشكالي.. فقد كان نزول الماء من الحنفية نادراً بما يكفي لاستمرار التعامل معه كفأل. هكذا.. حين لا يكون صباحي مجعلكاً.. يحدث أن أكون جميلة فعلاً ورائقة. لكن أحياناً.. لا أجد عندي من الروح ما يمكنني من إطلاق تأوهاتي الأمريكية ولا ما يمنع شتائمي العجيبة من الانسياب بلكنة تجلو الصدر بفظاظتها.. فأخرج لصباحي كدرة وبشعة.. هكذا ببساطة.. أنا أعرف نفسي جيداً. – **وهذه الجملة مؤقتة جداً ولغايات خدمة الغرض منها فقط وينتهي مفعولها بانتهاء الجملة اللاحقة** – وأجمل ما فيّ أنني أعرف متى أكون جميلة ومتى لا أكون، وأتقبل نفسي جيداً على الوجهين، وهذا يمنحني خبرة في الحياة لا أظن أن أحداً يستطيع الحصول عليها بالسهولة التي تحصل عليها الصبايا الجميلات أحياناً – الكدرات أحياناً، وعلى وجه الإجمال فإنهن أكثر فئات المجتمع تعرضاً للنفسيات الحقيقية لمن حولهن.

كنت أخرج صباحاً في الأيام الصيفية التي تنتهي روعتها عند الثامنة صباحاً ليبدأ قرفها وحرّها وعرقها وروائحها. أخرج مبكرة وأتمشى على مهل. تمر السيارات.. المشاة.. بكبات الغاز.. قليل من الدراجات.. سيارات جيش صغيرة.. كونتنتالات جيش كبيرة.. قلابات تحمل مصاروة في الخلف.. سيارات تاكسي.. سرفيسات.. كوسترات.. وبالطبع باصات المؤسسة.

دون أي استثناء، وبضمير مرتاح جداً، أستطيع الجزم أن عيني أي رجل لم تحد عن بطة ساقيّ إلا عندما كادت رقبته أن تنكسر. الجميع.. الجميع، من فئات عمرية تتراوح بين الثانية عشرة والثمانين، لم أجد استثناءاً واحداً، والمشكلة هي أنني لم أكن خارقة الجمال،

كنت أكثر من متوسطة بمقدار مشكوك فيه. بالطبع كان هناك أذكياء وأدعياء، خفيفي ظلّ ومقرفين، بشماغات أو ببذلات داكنة، بأحذية سوداء لمّاعة أو ببساطير لمّاعة أيضاً.. جداً، وشباب طائش بجينز مهرقل وصنادل جلدية من أقربائهم في الضفة، محترمين بنظرات مسروقة ومُحرَجة، وسوقيين بشفتين مبللتين وإشارات مبتذلة. جميعهم.. جميعهم لم يروا سوى بطة ساقي، وحين يدرك أحدهم أني سأغيب عن ناظريه دون أن يرى وجهي يلتفت إليّ بتعابير استدراك على وجهه تتحول إلى تعبير آخر حسب وضعي ذلك اليوم إن كنت جميلة أو بشعة. فإن كنت بشعة، أسقط عينيه للأسفل فوراً محاولاً تعويض ما ضاع من وقته على وجه لا يستحق، لكن إذا كنت جميلة، فهنا تبدأ المأساة، فلن يتخيل الرجال أبداً كم يبدون أغبياء بكل تلك التعابير التي يحاولون وضعها على وجوههم لتصادف رضى لدى وجه جميل. حشد من التعابير التي لها والتي ليس لها علاقة بأي شيء، يجمعها الخوف الذي يطل من العينين. يطلّ الحذر والرهبة من وجوه الرجال أمام امرأة جميلة، والتسامح والتغاضي المسبق عن أي احتقار أو استخفاف أو أو إهمال يمكن أن تلحقه هي بهم.

أفكر.. هل حين تقوم الفتاة التي تجلس مصالبة ساقيها وتمر أمام الرجل يستطيع إخراج نفسه من تفحصه لجسدها والانتباه إلى ذلك الاحمرار الدافيء المرتسم كوحمة على ساقها؟ هل يغار مثلاً من هذه الألفة التي بين المرأة وجسدها؟.. هل للرجال خبرة خصوصية بالتفاصيل؟

ثم أستبعد ذلك، المرأة وحدها هي أم المهمَلات.

هل يجب أن أعيش مرة كامرأة وأخرى كرجل كي أتأكد من قناعاتي أو استنتاجاتي.

مع الخبرة أصبح بإمكاني تمييز طبقة الرجل وثقافته، والأهم نفسيته من هذه النظرات، وهكذا فإن كثيراً من أساسياتي ومبادئي بنيت على استنتاجات مشابهه، فأي إخلاص يمكنني أن أؤمن به -كانت قدرتي على إطلاق الأحكام لم تُصَب بعد بالحرص المبالغ به على الموضوعية – حين تكون زوجة الرجل معه في السيارة – **وهذا واضح من درجة الملل أو حدة الشجار** – أو خطيبته – **وهذا واضح من شكل الابتسامة أو الجوع المرتسم على وجهه لأشياء متعددة** – وتكاد عيناه تتبرآن من وجهه، وسواء كان ملل امرأته منه طاغ على حرصها عليه، أو كانت ما زالت لا تعرفه جيداً وتنظر أمامها وهي معه في السيارة مما يعطيه حرية التصرف، أو كانت قد عرفته جيداً إما لطول التعايش أو لتعدد الوقائع وكانت من اللواتي كلما رأت استدارة أو تنورة في الشارع مهما كان طولها استدارت جانباً وبحلقت في وجه زوجها دون أي محاولة حتى لفتح حديث كمبرر سخيف لهذه الاستدارة المفاجئة، ففي الحالتين يجد الرجل مخرجاً ليشير لي بالغماز أو الفلاشر أو الضوء المتكرر أو حتى بالزامور والتعذر بالمشاة الآخرين غيري. فمهما فعلت امرأته ومهما كان شكلها..

صبية جميلة.. امرأة عادية.. أربعينية ضجرة.. أو مستقوية مراقبة، ففي جميع الأحوال، يفلت الرجل ويوصل ما يريد إلى من يريد مهما كان شكلها أيضاً. وهكذا تشكلت نظريتي المشوشة عن الحب، وباستبعاد المفاهيم الساذجة مثل الإخلاص، يمكنني فهم الحب على أنه الرغبة فيما ليس لديك.. وإنه مجموعة من الأشياء – الرغبة.. والحاجة للانحباب والأمل في الزواج.. والرغبة في عيش قصة عاطفية والرغبة في البكاء والسهر والأسرار – التي يمكن فهمها على حقيقتها كلّ على انفراد.. لكن إذا اجتمعت تصنع وهماً غير قابل للانفهام. وكذلك، صار لديّ مفهوم بسيط جداً وعملي عن الفوارق الحضارية بين الشعوب، كانت خفة الظل هي ما يفضح غربة صاحبها وليست لهجته. كانت اللكنة المصرية تنساب ناعمة صريحة، فتصير الصباحات عذبة وتندفع الابتسامة – **رغم مقاومتي لها لدواعي عدم السماح بالتمادي** – إلى شفتيّ، ويثير ابتعاد التعليقات عن الابتذال استغرابي عند ربطها بشكل مطلِقها.

وبالطبع فلا أحد يمكنه تأكيد جمال الحياة وروعتها مثل فتاة جميلة.. فإن الرجال بالذات يجعلون الحياة أسهل وأجمل للجميلات.. ويجعلونها مقرفة ونكدة لغيرهن. حين أكون جميلة أتلقى ابتسامات وصباحات لا حصر لها، ويكون الأشخاص بشوشين بدرجة تقارب الكذب والأشياء سهلة والمتطوعين لأي شيء كثر. أما حين أكون عادية فالحياة كلها تختلف.. تصبح أصعب وبالإمكان عكس كل ما سبق لينطبق تماماً على هذه الحالة.

حين أكون جميلة دون أناقة، تكون التعليقات طيبة أو تنبض بالألفة بيني وبينهم، أو ممسوحة بشيء من الشهامة؟ الشفقة؟ كما لو لفتاة صغيرة حلوة.

حين أكون أنيقة دون جمال.. تكون التعليقات لئيمة.. ومبتذلة وتكرهني وأكون أنا من عالم آخر لا ينتمون إليه.

حين أكون جميلة وأنيقة.. تكون شتائم متحسّرة بحرقة.. عبارات من أفلام رومانسية.. ناعمة وفارغة.

يراودني شعور التوقف الآن. وهذه هي الحالة النفسية التي تصيبني حين آخذ في الثرثرة وينزلق الكلام من فمي دون رغبتي، حين أقول أشياء كثيرة لا مبرر لها، فأكف فجأة وألغي كل ما قلت، أسحبه من آذان من سمعوني كما لو كنت أمزق ورقة كتبت عليها كلامي. وهكذا فإن أحداً لم يتسنَ له معرفتي حيث أن حالة التوقف تصيبني دوماً بعد كل جملة أقولها.

عادةً لا أتحدث كثيراً، بل أنني لا أتحدث أبداً، أعني عبر العملية المألوفة من اهتزاز الحبال الصوتية وخروج أصوات. أتحدث مع نفسي دون إصدار أصوات، ربما لأني أكره فكرة وجود آلات وحبال واهتزازات داخل حلقي، وربما لأني لا أجد أحداً أتحدث إليه، وربما لأن شفتاي تكونان ملتصقتان في العادة ببعضهما مما يسبب تمزقهما حين أحاول فتحهما للحديث وهذه عملية مؤلمة فضلاً عن أن لا أحد يستحق هذا العناء كله. في الواقع لم يكن هناك أحد البتة بغض النظر عن استحقاقه أو عدمه.

لكن.. في ذات الوقت الذي كان الجميع فيه يجدون صعوبة في استلال إجابات لأسئلتهم من صمتي ونظرتي الملولة، كنت ثرثارة كبيرة على الورق. لكني لم أكن أعرف إن كانت كتابتي شيئاً أم كانت ثرثرة فارغة حرمت نفسي منها، ثم مارستها على الورق؟ كيف لي أن أعرف إن كان هذا الشيء له تأثير يشبه ما كانت تفعله بي كتابات الآخرين. كانت لِقية نصّ يمسّني أو قد، تصيبني بالذعر! الذعر نعم. يمسّني؟ أيضاً نعم. كنت أقف أمام رفوف الكتب في شومان وأعطي ظهري للباب ولنظرة الموظف الخمسيني المشاكسة، أطيل الوقوف تفتيشاً عن عنوان ما أو إهداء ما يستفزّني لأتصفح كتاب صاحبه، تتكيء يدي على كتاب صغير فأقرأ عنوانه " هوامش إلى السيدة ب " فأنسى نظرة الرجل التي تنغرس في ظهري، أسحب الكتاب لأجد أن صاحبته امرأة، كان العنوان وحده أو جنس كاتبته يكفي لاستفزازي، كنت أبحث عن كتابات النساء، وأعرف أنها ستصير صديقتي جداً أو أنني سأكرهها جداً. كان لكتابات النساء هذه الحدّة، لم يكن ممكناً لهن أن يمسسن روحك في كتاب ثم يخذلنك في آخر. إنهن إما قريبات جداً ودائماً أو غيرموجودات.

في الطريق بين المكتبة وغرفتي تكون كفي تحتفل بالكتاب وتتلمسه. لم أكن أحاول تصفّح الكتب في الشارع أثناء انتظاراتي المتعددة وأحياناً الطويلة، كان الشارع لا يليق بالتعرف على الأصدقاء الجدد، وكان ازدحامه وغباره سبباً في أي سوء فهم قد يحدث بيني وبين ضيفي. أصل غرفتي فأرتجف نشوة، أختبيء مع لِقيتي كما مع حبيب سري، أهيئ لنفسي أجواء راحة مطلقة، فراشاً وثيراً أستلقي عليه، وشمساً تسقط من النافذة على رأسي مباشرة فأدفأ. أضع وسادتين تحت ظهري، وأرتدي شالي الحريري الأخضر، أضع منفضة السجائر إلى جانب فنجان القهوة الكبير، ثم ألاقي كتابي، ولا يفكّني منه أو يفكّه مني أحد.

ولكن.. ماذا عني أنا؟ ما الذي أريده من هذه العملية كلها، الكتابة؟

حين تكون كتابتي مسليّة، أشعر بالابتذال، مثل مطربة بشعر أشقر مؤكسد، تغني أمام جمعٍ مطلَقه رجال سكارى.

وحين أكتب ما أريد دون اعتبار لأي كائن غيري، أكون وحيدة مثل المرأة التي لا أحد يصفق لغنائها.. لا أحد يقف لها و لا امرأة في المكان غيرها.

وحين أفرح بشيء كتبته فأقيم الاحتفالات به ثم أعود لقراءته أجده باهتاً، فأحزن مثل المرأة التي تهبط عن المنصة وتذهب لغرفتها لترتدي شيئاً محتشماً جداً، بل مبالغ في احتشامه، تقبض أجرتها الهزيلة، ثم تخرج للركن البعيد الذي خبأت سيارتها القديمة فيه، وتغادر بكآبة، لتصل بيتها الفارغ.

حين أكون مسلية، أحس بالخوف.. بالسذاجة.

ما ألطف كلماتكِ.. كتابتك لها طابع النعومة النسائية، لها عطر أنثوي، كتبتِ شيئاً مسلياً، يمكن لأي كان أن يقرأه أثناء قرمزته في الحمام – حتى لو كان الحمّام عربياً فإن كتابتك مسلّية لدرجة إهمال الخدر في الساقين –.

كتابتكِ تطير عن الأساطيح، وأفتش عن رصاص ليُثقِلها، لكن روحي خالية من الرصاص.

وكآبتكِ.. أظنها عابرة. أينها إذن؟ إنك تطعّمين الكلمات بالنكد، لا الكآبة.

كتاباتك.. ستقرأها ابتسام ولفافات الشعر الزهرية تملأ رأسها، ستجدها بسيطة لدرجة أنها تودّ نصحك أن تضعي هذه الكلمة في مكان أخرى، أو أن تشطبي كلمة غير لائقة. كتابتك مهذبة، أنيقة، مثل الطقم ذي الثلاث قطع، مثل السشوار اليومي ولفافات الشعر الزهرية.

مروري خادش بالكاد، أمرّ على الأشياء كما الريح على الماء – **أشبه المتنبي؟** – أسبّب بعض التموّجات الطفيفة على السطح، لا يأخذني العمق لأغوص فيه أو أعترك معه.

أمرّ على الأشياء كما أمرّ على الأشخاص، مستعجلة، قبل أن يثقلوا على روحي فلا أعود أطيق رؤيتهم، والأشياء كذلك، لا أعطيها حجماً كي لا تخنقني.

مروري طاريء، صدفة تذكرني بأمر أفاجأ بأنه ملّح لهذه الدرجة والآن.

مروري جارح، يجرحني ويلتئم قبل أن أدير وجهي.

أمسك أوراقي، أعود للمرور على الكلمات والتنكيد عليها، أسرق ألقَها الفرِح إن وُجد، وأغرقها بمللي ونكدي. أمر على نصوص المرأة فلا أستطيع تغييرها.

كل ما أكرهه أقع فيه، في الحياة أو في الكتابة، يضايقني المبتدأ الذي يبتعد عن الخبر، كان المبتدأ يعلق هناك في رأس الصفحة ثم تتلاحق الجمل الصغيرة الحيوية المستعجلة، فألهث وأنا ألاحقها، ويتعب قلبي وأنا أوازن بين أن أمنحني وقتاً لتخيل كل واحدة منها وبين استعجالي لأعرف الخبر.

ماذا أفعل إذن؟ إنني أبدأ الشيء فأضيع. أصل نقطة تتفرع لألف وأريد أن أمشي وراء كل ما يخطر لي، أريد أن أغوص فيه وأنساني هناك.

وكيف سأنتهي، هل سأنتهي؟ متى، وأنا كلما طال الزمن وجدت شيئاً ملحّاً كنت قد أغفلته، وكلما ظننتني اكتملت، كنت في غاية نقصي، كيف يمكن لي أن أنتهي من أمر لا أضيف عليه حرفاً ولا أخجل منه؟ هل سأخجل منه، بعد قليل حين أكبر، هل في نصي من الجنون ما يتعارض مع سكوني اللاحق؟ أم فيه وقار مستعجِل؟.

كنت وحيدة جداً.. وما زلت. ذات مرة كنت جميلة، صعدت إلى باص كوستر يقف أمام مستشفى الجامعة ليوصلني إلى أي مكان فقد كان أي مكان يماثل كل الأمكنة الأخرى لدي، نظرت عبر زجاج الباص أريد أن أرى شيئاً يفرحني أو يبكيني، أي شيء يتحرك.. لم أجد سوى وجهي يطالعني في الزجاج.. مرهقاً.. جميلاً.. وحزيناً.. بدأت بالبكاء دون أن أعرف السبب.. حاولت إخفاء دموعي في بداية الأمر.. ثم لم أجد داعٍ لذلك.. فناولت الكنترول النقود رافعة إليه وجهاً مبللاً بالدموع وسط دهشته والآخرين.. ولم يكن ثمة من أقدم له تفسيراً لذلك.. بعدها وحتى عندما كنت بشعة.. كنت أبكي في باصات الكوستر.. لم أجرؤ طبعاً على تجريب ذلك في باصات المؤسسة فهي أقل خصوصية والمجال أوسع للتدخل. وأبداً لم أعرف سبب بكائي ولكنني أفهم الآن لمَ كان الرجل أسبق للسيجارة.. كي يحبس دمعه، يمنعه أن ينزل.

-السيجارة حلٌّ الغصة في الحلق.. حلٌّ الدمعة المرتجفة على أعتاب العين -..

وأحياناً.. فإنني أحس بالحزن.. حزن كبير.. أكبر مني ربما.. خاصة حين يهبط بنا باص المؤسسة من أبو نصير.. وأنا متعلقة بالسقف بواسطة قطعة من المطاط، محاولة اختصار مساحة جسدي كي لا ألامس أحداً من سكان الباص حين يميل بنا، أحزن حين أضطر لخفض بصري إلى الأسفل لأشاهد أضواء مخيم البقعة، مضاءة ببقايا شمسٍ ما وبأضواءٍ صغيرة والهواء بارد جداً. كان حزن البقعة يثير خجلي، فأصير على حافة البكاء ثم أتذكر أنني في باص المؤسسة ويجب ألا أبكي. لكني أحياناً – وأقول هذا بخجل – حين يكون في أحد المقاعد التي حولي شاب وسيم فإنني لا أتذكر هذا الحزن ولا أقترب من البكاء. إن فيّ أشياء مخجلة كثيرة.

أحياناً.. يكون الحزن الذي أشعر به يجعلني أستغرب كيف أطيق حياتي، ثم في أحايين أخرى أستغرب بنفس القدر ماذا يمكن أن يوجد في هذا العالم ويسبب لي حزنا كالذي شعرت به.. وأقول أن لا شيء في العالم يستحق كل هذا الأسى.

حين أكون عاقلة، ألضم الحزن خيطاً لإبرتي وأخيط مزق روحي الصغيرة فأشبه الشراشف التي تصنعها جدتي، قطعة من ثوبها، أخرى من بيجامة اهترأت، قطعة من قماشة ستارة زادت، وأخرى من بقايا كانت عند سهام الخياطة. أخيط فرحي وأصدقه، وأجد من يعينني على ذلك. الفتاة الوحيدة التي كانت تقف على الجانب الآخر من الشارع الموحش ساعدتني كثيراً في صديق فرحي المرقّع. كان المطر يملأ المسافة بيني وبين الشاب الذي يمشي أمامي، أدار رأسه ونظر إليّ، هممت بالخوف من العتمة والمطر والشوارع الخاوية والشاب الغريب، لكن نظرته لم تكترث بي، كان مستعجلاً وكان البرد يجبرني على الاستعجال، فكرّت أنني وحيدة وأعجبني أن أجعل الشاب المستعجل رفيق رصيفي ومطري. الشاب المستعجل ربما فكّر أنني وراءه أرتعش من البرد، وأنه لو حاذاني فربما يزيح شيئاً من الكآبة التي كانت تشع مني. ظلّ ما أفكر به لي وما يفكر به له، لكن الضوء البائس للسيارة التي عبرت الشارع سحب نظرتينا، أنا والشاب، إلى الرصيف المقابل حيث الفتاة المبلولة التي تشبه المصباح الذي تقف تحته، نائسة ووحيدة. خفّف الشاب من استعجاله وحاذاني، تباطأت في مشيتي حتى لا أسبقه، مشينا متجاورين، وعلى مهل. لم أنظر إلى وجهه، ولم ينظر إليّ، نظرنا إلى الفتاة وأصابنا الحزن من وحدتها. ثم، حين كنت في غرفتي أغرق في وحدتي، أدركت أن الفتاة المبلولة ظنتنا عاشقين، وتذكرت أن شيئاً يشبه الفرح كان يلتمع على حذاء ذلك الشاب الذي كأنه كان حبيبي، فتألق ذلك الحزن غير الصافي. غير صافٍ.. لأني أبداً لم أنعم بإحساس مطلق من أي نوع، وفي أقصى لحظات الإحساس بأي شعور كانت مشاعر أخرى نقيضة ومشابهة تختلط في رأسي. لم يكن بإمكاني أن أستغرق في شعور واحد، لم أستطع أن أحزن دون أن أضحك في قلبي، ولا أن

أفرح بالمقدار الذي يظهر على هيئتي الخارجية. وفي المقابل كان الكثير من الأشياء التي كنت أحب أن تظهر على وجهي تعاندني وتختفي، وكانت هذه إحدى نقاط التشابه بيني وبين أبي. هذا التشابه الذي يخنقني. ولا يعني هذا أنه كان رجلاً سيئاً، فقد كان كثيراً من الأشياء المختلطة وغير الواضحة في رأسي. كان في عينيه اللتين لم أرهما ولو مرة واحدة طيلة حياتي نظرة تقول لنا.. نحن – **من ورّطنا بإرادته ورغم إرادتنا** – إنني طيب ولست بالقسوة التي تظنوني بها.. من أين لرؤوسكم الفارغة هذه الصورة عني؟ أنني أبكي لأنكم تعتقدونني مؤقتاً..كان عيناه تقولان الكثير لكن أحداً قط لم يرهما.. وشفتاه الملتصقتان حالتا دون ذلك أيضاً.. وربما أشياء أخرى.. ولا أنوي الحديث عنه الآن.. ما أردت قوله هو أنني كنت مطاردة بتشابهي معه.. كلّ ما أفعله كان هو قد فعله قبلي.. كل ما أحب وما لا أحب.. ما أفكر به وما أبُعده.. وهكذا.. فإني كنت أواجه مللاً كبيراً في الاستمرار في الحياة وأنا أعرف سلفاً إلى أين ستفضي بي.. وحين كان التفكير يوصلني لمحاولة استجداء اختلافات صغيرة عن أبي.. مهما كانت.. فإن هذا إشعار بأنني في أسوأ الأوضاع التي قد أصلها على الإطلاق.. وما كنت لأحتمله دون تذمر.

وإجمالاً.. كان هناك كثير من الأشياء الحزينة في حياتي.. والكئيبة أيضاً، إلا أن ما يحزنني أكثر من أي شيء هو أنني كنت دوماً امرأة بلا ذاكرة.. كان كل ما يمضي يمّحي من ذاكرتي بصورة عجيبة. لم أكن لأفتقد أشخاصاً أو أماكن أو أي شيء.. كان ما يغيب عن عينيّ ينسى في ذات اللحظة.. وكان يمكن أن أتمتع بامتيازات هذا الأمر لولا أنني نكدة الطبع.. الحقيقة أن الآخرين هم الذين قالوا لي إن لي طباعاً نكدة ولم أكن أعرف كيف ذلك إلا إنني صدقتهم. كنت أصدق ما يقوله لي الآخرون.. تماماً، حتى الآخرين الذين لا أعرفهم. احتجت زمناً طويلاً لأشك في صدق الصحف اليومية.كنت أصدق كل ما يكتب في الصحف.. وكانت وحدتي ورغبتي الدائمة في أن لا أبدو قليلة المعرفة – **المعرفة، أي كذبة!**– تمنعني من الاستفسار عن التناقضات التي أقرأها. كنت أحتار حين يصرّح مسؤول ما بأقوال تناقض ما قاله قبل يومين، تناقض واضح، لكن.. أبداً لم أشك أنهم يكذبون، كنت أشك بفهمي لأقوالهم، أشك بوجود أخطاء في الطباعة، أشك بقدراتي الذهنية وأخجل لاعتقادي أن تصريحاتهم هذه –**التي ستقود الناس الساذجين مثلي إلى أن يفكروا مثلي**– ستسبب لهم الإحراج، وظللت في صراع داخلي بين هذه القداسة التي للكلمات المطبوعة وبين هذا التناقض الواضح الذي – حين أضع الصحيفة على طاولة مطبخنا المشمس جداً، وأفرد لوحدتي وفراغي الوقت لقراءتها بتمعّن اليفاعة المصرة على النضج – يصفعني كل يوم ولا أستطيع دائماً تبريره.كانت الصحف مفاجأتي المتكررة. وهكذا لم ينقذني من هذا غير أمي التي – **بينما هي تنظف الثلاجة وبمنتهى البساطة** – قالت أن الصحف تكذب.

أية هالة انهارت داخلي حين سمعت قولها. تناولت الرف الزجاجي المكسور المغطى بالرغوة لأغسله ولم أنظر في عينيها، لم أرد لفزعي أن يثير سخريتها، لم أناقشها في الأمر، جعلتها تظن أني أعرف ذلك من قبل وأنني لم أفاجأ. لكن.. أية وقاحة ! لم أكن أصدق أنهم يفعلونها. بعدها توقفت عن تصديق الصحف تماماً، فأشخاصها كانوا بعيدين.. مجهولين، لذا قصرت تصديقي على الأشخاص القابلين للإنلماس.كنت أصدقهم دون أدنى شك في نواياهم ومصالحهم وحالاتهم النفسية لحظة إطلاقهم أحكامهم عليّ.. لذا.. فقد كنت أعاني كثيراً من أحكامهم، وأعتقدني تماماً مثلما قالوا.. ولكن، كانت هناك تلك الأوقات حين يغيرون آرائهم بي ويطلقون صفات جديدة عليّ مناقضة للأولى فأحتار ولا أعود أعرفني. كنت أفاجأ بوقاحة الآخرين ورغم ذلك أصدق نعوتاتهم الفظيعة عني.. بالطبع كنت أستثني من هذا الإيمان كل ما يمكن أن يكون مدحاً.. كنت لا أصدق الصفات الجيدة عني. كنت بحاجة إلى أكثر من شخص لأتأكد من صفة جيدة واحدة فيّ وأحتاج لمتابعة حثيثة منهم، فلا يكفي أن يطلق أحدهم حكماً جميلاً بحقي ثم يذهب هكذا، يجب أن يتذكر من حين لآخر أن ينعشه، فإن نسي اعتبرت حكمه كأنه لم يكن، لذلك أراني دوماً مشنشلة بصفاتي السيئة وصورتي القبيحة دون أي مواساة.

كانت لي طباع فظة.. وكانت كثيرة. كثيرة بحيث لا يمكن للآخرين احتمالها، لذا كان يجب أن أغيّر المجموعة التي أتعامل معها بين حين وآخر وإلا صرت شرسة في كل ما له اتصال بهم. كان أساس مشكلتي مع الآخرين هو أنهم لا يشبهونني.. فأنا مثلاً لا أحقد ولا أحمل ضغينة لأحد وأستمع للآخرين بأناة وصبر، والأهم من كل هذا أنهم جديدون دوماً بالنسة لي.. ما يقولوه وما يفعلوه، فقد كنت لا أذكر أحاديثهم السابقة فأمنحهم دوماً فرص إدهاشي بقصصهم، وفرصة الحديث دون خوف من اختلاف الرواية في كل مرة. لكن ما كان يحدث هو أنهم صاروا يستغفلونني. ليس فقط أنهم لا يتمتعون بصفاتي بل أنها لا تعجبهم ويتهمونني بالتعالي عليهم وعدم الإصغاء لأحاديثهم وعدم الاهتمام بتفاصيل حياتهم. وهكذا فإنه كان لي من الصفات ما لم أسع إليه، وكان هذا يعجبني، على الأقل أكثر من الصفات التي كنت أتذكرها أنا عن نفسي.. مع أنني كنت أنسى دوماً كيف كنت قبل فترة.. وكان من السهل أن أغضب من حياتي السابقة التي نسيتها أو أفرح بها تبعاً لحالتي النفسية.

إنها مشكلة دائمة لدي تقريباً.. أنني إما لا أفهم المغزى المراد إيصاله لي فوراً.. وإما تكون ردة فعلي السكون التام.. ودائماً أتمنى لو رددت بشكل آخر غير ما فعلت.. لكني كنت أكثر من يخيب ظني في هذا العالم.. كنت أفكر لو أني رددت هكذا أو تصرفت هكذا.. وأعد نفسي بالتصرف كما خططت في المرات القادمة ولكن أبداً لم يكن الموقف نفسه ليتكرر معي أو أنه يتكرر حين أكون قد نسيته ونسيت خططي الحاسمة لمواجهته. كان الآخرون

يرهقونني بكل شيء.. بنظرتهم إليّ.. بكلماتهم.. بأفعالهم.. لذا.. كنت أحرن بين الوقت والآخر، ويشمل هذا كل الأنشطة الحياتية التي قد يقوم بها الإنسان، فقد كنت أتوقف عن الأكل والشرب والإخراج والخروج والعمل. كنت لا أفعل أي شيء في نوبات الحَرَن هذه. أجلس في فراشي.. وأحملق، وأغرق في أفكاري البعيدة عن أي شيء قد يكون له صلة بدواعي حرني.. وكنت دوماً أخرج بنتيجة بعدها.. هي أنني لو حُبست طيلة عمري فلن يكون ذلك سجناً بالنسبة لي.. لن يكون مملاً.. أو أي من الصفات التي يطلقونها عليه، وأعتقد أنني سأقضي الوقت دون أن أحس، سأبحلق في زاوية ما وأحرن، فتأخذني أفكاري أينما أردت. وهكذا كان بإمكاني الاستفادة من مزايا خيالي الواسع دون أن أعرض نفسي لمخاطر التعامل مع الناس وهذا كان ينسجم مع الاحتمالات التي كنت أضعها للحياة السابقة على حياتنا هذه ويؤكد صحة توقعاتي، فقد كنت كثيراً ما أفكر بما قبل أن نولد، وكنت أظن أن أكثر ما يناسبني – نتيجة نوبات السكون هذه – هو أنني كنت شجرة. كنت أرتاح حين أفكر بهذا، ربما لأن ذلك يعطيني مجالاً لأختار لما بعد موتي.. ذلك أنني أحياناً أتمنى وأحياناً أشك أننا نتحول لأشياء مختلفة.. غير أنني لم أكن قلقة بما بعد موتي.. كنت ما زلت منشغلة بمن شَلَعَني –**مني، أنا قبلاً**– عنوة وقذفني هنا. ما زلت منشغلة بما قبل قدومي.. ومنشغلة بلماذا. لست جسراً لمن مرّوا ومن سيمرّوا، ولن يعبر أحد من الأكوان السابقة للحياة اللاحقة على جسدي. كان يخنقني عمر الحضارات التي فاتتني، الزمن الذي كان منذ البدء دوني. لم أقبل حضوراً منقطعاً عما قبله لاستكمال ما بعده، ولستُ حلقة. عمري هو منذ البدء.. فلمَ أُقسر على حشره؟. حضرتُ بعد أن بدأت الأشياء، فاتتني بدايات الأشياء، أو ينبغي أن أتصرف كما لو أن الحياة ليست أكثر قيمة من غبار طبشورة؟ أي تفاهة ينبغي أن أكون عليها لأقبل أن أبدأ من نقطة لم أخلقها ثم ماذا؟ أكمل جزءاً صغيراً من سباق التتابع هذا لأتركه لتافهٍ ما بعدي دون أن اعرف ما استلمت و ما سلّمت.. أي عُهدة !.

منشغلة بالأقدام التي ستعبر فوقي من جيل إلى جيل رافعة شعار "سنّة الحياة ".. أظنني –**وفقاً لمعرفتي بي**– لن أستطيع الانتهاء من التفكير في ذلك قبل أن أموت، لذا سأموت ملحوقة، كما عشت ملحوقة. كان هناك دوماً ما أنا مقصّرة فيه، ما يجب أن أنهيه خلال زمن محدد، ما يجب أن أفعله قبل أن..

أظنني أيضاً بدأت أملّ مني..

الإنسان صادرٌ عن ملله..

وإنك لمللكَ تفتح الأحاديث وتغلقها.. وتخترع الفكرة ونقيضها.. ثم تقتلهما معاً..

الحياة.. مخرج ملل.

البارحة.. وأنا في فراش موتي.. أو فراش موت الآخرين..كنت التقطت الكثير وبدقة.. اليوم لا أجد لا كثير.. ولا دقة..

سأجرب أن أسير بعادية تامة.. هكذا دون شعننات..

كانت حارة رقم ٢ صباحي الذي لا أحب. كانت أبو نصير جرحاً صغيراً.. لشدة عاديته لا يندمل.

جروح الحب ليست عادية.. اندملت، جروح الخيانات ليست عادية أيضاً، جروح خذلانات الأقربين.. كذلك. جميعها اندملت، لكن.. جرحاً مثل أبو نصير، لا يمتلك مقومات الجرح، ولا يجب أن يكون جرحاً، لم يجد أحداً يلتفت إليه ليلئمه.. فظلّ.. منذ سرت في شوارعها المعتمة الباردة وحدي.

ل" أبو نصير " في ذاكرتي صورة باص المؤسسة، والجو شتاء، وبردها لا يعرفه إلا من سكنها حزيناً. الباص مضاء لأن العتمة ما زالت سيدة. أنا والعمال المصاروة فقط من يخرج في هذي الساعة.. ولا راديو يدار على أي محطة علّ الصباح يصطبغ بأي لون - إذن.. لوّني صباحك بما تريدين -.

أجلس منتظرة صعود الآخرين، أنظر صوب نافذة بعيدة ما زال زجاجها يحمل غبش أنفاسي. أنظر صوب أي نافذة. النوافذ تتشابه.. والبوابات، وفي سرّي أشكّ في تشابه دواخل البيوت ودواخل القلوب.

أراها من بعيد.. من الخارج. جافة.. مقفرة.. مطفأة. لها فلسفة باصات المؤسسة.. الضروري فقط. لكن ليس بذات الدافع.. بدوافع كثيرة أخرى.

وليس الأمر أن الصرامة تقتلني - رغم إني أحب الأشياء الزائدة والمهمَلة - وليس أن التشابه عديم الحياة.. فالموضوع ليس منتهياً بيني وبيني، لكن.. أبو نصير يشبه وطناً صغيراً أعرفه، خجلت منه أحياناً.. ثم.. صار يكبر فيّ مثل عظامي، صار يزيح الأشياء من داخلي ليسكن، كأنها وراثة ما بعد الثلاثين.

مسحة أعرفها على وجوه قاطنيه، أشخاص لا يشبه أحد منهم الآخر. يتجاورون بحميمية لم يختاروها، لا أحد يحضر من حيث أتى الآخر.

أرضي الصغيرة لا تعجب أحداً، لا تعجب بالذات من يعيشون فيها، لا يحبونها ولا يتركونها.. يبقون.

وأنا أفتش عن مكان أحبه، وأتنقل هنا وهناك عساني أجد أرضاً تشبهني.. طيبة وبلا ذاكرة.. تملّ من الحديث فتنام.. وتمنح دهشتها لصغارها الكاذبين.. فلا أجد.

أفتش أكثر.. أجد بقعاً أكرهها.. أتعثر بصويلح (مدنٍ – معبر).. وبالمفرق (مدن – غبار).. وبعمان (مدن – مدّعية).... وبإربد (مدن – ملل).

وأبو نصير كانت كل هذه المدن معاً..

أجلس على المقعد الجاف.. ورائحة النوم تعبق في الباص.. وصمت.. صمت الصباح الذي لم يستكمل صباحه.

لباص المؤسسة مجموعة روائح مميزة ومتنوعة.. فما قبل الشمس له رائحة النعاس الذابل والكعك غير المحلى الرخيص المغطوط بالشاي المخلوط أحياناً بالحليب.. وما قبل دوام المدارس له رائحة المراييل ولون الشجارات الصباحية. للجمعة رائحة حريفة وبليدة معاً.. للسبت رائحة صابون النعامة والديتول.. ولما بعد العاشرة رائحة الأمهات المثقلات بسلال الخضار الفقيرة المشبكة.. ولما بعد العصر رائحة مزيلات العرق غير الرخيصة لطالبات الجامعة اللواتي يحاولن أن لا ينتمين لسكان باص المؤسسة ورائحة الجِلّ الذي يزوّر انتماء شباب العشرينيات المبكرة إلى طبقة تتشارك في البناطيل والأحذية والحبيبات..
وللصيف رائحة الآباط المتعرقة.. وللصيف احمرار وجوه النساء البدينات اللواتي يوشكن على الانفجار من الزحام والرائحة والضغط والقهر.. ولرائحة سجائر الفيلادلفيا موقع يزاحم كل تلك الروائح على الدوام..

وباص المؤسسة أطول بالاً من الجدات، يتوقف ويتوقف ويتوقف ويسير. وألعن غبائي وضعفي والبرد الذي جعلني أستعجل الصعود فيه وحرمني من إمكانية الكوستر، حيث يمكن على الأقل أن تسمع بالخطأ من إذاعة ما أو مسجل ما صوتاً تحبه أو لا تحبه، أي شيء. يتوقف.. يتوقف.. ويسير، وتستغرقني طريقي ساعة كاملة، ساعة كانت تكفيني لأشرب امتدادات اربد الصباحية الحنونة. أفكر أن صباحاتي لو كانت تبدأ في إربد، لما

تملّكني هذا الإحساس الذي يغمرني الآن أنني مهمَلة كقرش سقط في زاوية مقعد ما ونُسي. صباح بارد يبدأ في اربد.. يعني أن ترى تلك الأكوام الشقراء وقت الحصاد، لون الذهب الرطب فجراً، ويعني أن تتشارك الصمت والنعاس ودفء الباص مع غرباء كثيرين ويعني الاتفاق الضمني بين الجميع أن الصاحي يوقظ النائم عند دوار صويلح. ويعني أن إفطارك بالضرورة سيكون كعك العشرة قروش والزعتر المملّح.

أنظر إلى الساعة وأعود لصب اللعنات على نفسي وعلى كل شيء حولي. كنت طوال ساعتي هذه أصلّي ليزداد البرد ويزداد، حتى تتوقف كل الأشياء عن الحركة، حتى تخلو الشوارع ويسود البياض والصمت والهواء الجارح، فأصير أنا سيدة الشوارع، حتى يختفي البشر الفائضون عن حاجتنا أنا والبرد، ولا يبقى سواي معه. الفائضون كانوا يختبئون، الفائضون كانوا يخافون الفائضين الآخرين، لأنهم كانوا مضطرين لمجاملتهم واصطناع الابتسام فتتكسر وجوههم المتجمدة. ولأن الكلام كان يضغط عليهم، يفتحون أفواههم لتخرج الكلمات فيدخل الثلج إلى أفواههم ويسدّها فيختنقون. لكني، أنا التي لم أعرف الكلام، وأنا التي لا أستطيع الابتسام، أنا التي يظل وجهي خلواً من التعابير – مهما حاولت – حتى يظنني الآخرون بلهاء، كنت أدعو –كلما أحسست أنني نظيفة وبريئة بما يكفي لأتحدث إلى الله – أن يظل هذا البرد طيلة العام، لأنني عندها فقط، كنت أترك لوجهي أن يكون مرتاحاً، ولا أعذبه بمحاولة التشابه مع الآخرين في تعابير وجوههم المملة. لا أعرف لماذا كنت أفشل في إقناع الآخرين أنني أشبههم، أنني أنتمي لعالمهم ذاته، رغم جهودي العظيمة لذلك. أنظر في مرآة السائق الكبيرة –كانت هذه المرآة هي الميزة الوحيدة لباص المؤسسة على الكوستر– فأجد ما لا أستطيع الاقتناع بأنه سبب فشلي، وسط اندهاشي.. يا الله.. ما أبشعني ! تصعد الدموع من المكان الذي –رغم بحثي عنه – لم أجده، تفرش زجاجها على امتداد مساحة عينيّ، أنظر من خلالها وأتلذّذ بالعالم المائع الذي يتموج أمامي، أضغط عينيّ فتعتكر بحيرة صافية ولا أعود أرى. ينظر السائق إليّ بأسى.. ينظر كل السكان إليّ ويبحلقون، أمد إصبعي إلى زاوية العين لأمطّها إلى الأعلى علّها تبتلع دمعتها وأبتلع أنا غصّتي، لكن طرف إظفري يثقب كيس الدمع الدافيء المترجرج مثل حبيبات الزئبق، فينفتح لدموعي مسرب تسيل منه بغزارة تفاجئني. وأثناء حوقلته التي ينطّ التساؤل منها، يبدّل الذي جانبي مقعده مع امرأة عتيقة تجلس جواري، تحوقل أيضاً لكن بانكسار نسائي متفهمٍ، وتسألني ما بي. لو كنت في باص كوستر لأمكنني أن أشيح بوجهي ولا أجيب.. أما هنا...

في كل مرة أعاهد نفسي ألا أكرر هذه الرحلة المأساة وأقنع نفسي أن الانتظار نصف ساعة في البرد أفضل من فرفطة الروح بهذه الطريقة. لكن.. ل(أبو نصير) برد لا

يعادله شيء، لا القسوة.. ولا الحب من طرف واحد.. ولا الحزن الذي دونما سبب، لا يعادله شيء.. يشبهه فقط حزني على وطني الصغير الذي لا يحبه أحد.

أصل الدوار أخيراً.. أنزل وأمشي، وأمشي.

مشيي مزيج من الانتقام والعشق، أدحرج الأرض ورائي بغضب وعنفصة، وأتنفس رائحة الأرض عبر قدماي. أحب نفسي ماشية، أشعر بالامتنان لي لأني أذرع كل هاته المسافات، وأحس بالانتماء للّمربعات الصفر والسود المتعاقبة للرصيف، وأمشط بيديّ كل الشجيرات المندلقة عن أسوار بيوتها. وتكون هذه الشجرات أخواتي.

لا أراني إلا ماشية، صداقتي معي نشأت أثناء المشي، حبيبي وجدّتي وإخوتي نشأوا أثناء مشيي. لكن أحداً لا يستطيع المشي كما أستطيع وبالسرعة التي أمشي فيها، لذا كنت أنا أفضل صديقاتي.. بل صديقتي الوحيدة. مشيي لا يعلق به الخارج، فأنا لا أرى شيئاً أثناءه.. لا أرى إلا وصولي.

مرة تذكرت أنني أكون عمياء وأنا أمشي، أو أن أحداً أخبرني بذلك.. بكيت. كانت هذه حياتي.. أمشي عمياء.. مستعجلة للوصول إلى خوائي. أردت أن أرى، أجبرتُني على التمهل، من العشرينيات إلى الثلاثينيات، من دوار المدينة إلى منتصف شارع الجاردنز –**سابقاً**–.. أتمهل وأرى، أحاول أن أرى.. وأحتار في تصنيفي الطبقي.

رأيت أن لا صباحات لهذه المدينة.. ولا صغار.. كلهم كبروا..

بلى تذكرت.. في شارع فرعي بين دوار المدينة وشارع الجاردنز – سابقاً –.. صغيرة رفعت لها أمها شعرها الأحمر على شكل ذيل حصان.. يا الله كم كانت تشبه الحصان..

عادةً.. يكون المشي في إربد لا يشبه المشي.. يشبه الدلع !. لكنه اليوم ليس كذلك، اليوم بالذات كان المشي يشبه الحكّ، الحكّ المؤلم الذي يدسّ الدم في الأظافر المهووسة، ويبث النشوة الملتبسة في الداخل حيث لا إمكانية للتحديد، كان مشيي يؤلمني وينشيني. كان صدغاي ينبضان، ومعدتي تدقّ، وجهي أحمرُ وصبري نافذ، كنت أنتظر أزوف الموعد، وكنت أفتش عن أحد يحتمل كتمان عينيّ وتأهبي، ويساعدني على الخلاص من الانتظار. كنت أفتش عن الآخرين في قاعة مجمع النقابات ثم أدخل منها إلى مطعم الروضة الخالي دوماً. أصل بوابة الآداب وأفتش مدرج الفنون، ثم حول السكن، في القرية، وراء الاقتصاد، في المكتبة، عند الكشك، فلا أجدهم، أنزل للبوابة الرئيسية، أدخل متحف الغبار المقابل لها متمنية أن لا أجد أحداً فيه –رغم حاجتي لهم فقد كان طعم الغبار الذي يصعد من معدتي

ويملأ بلعومي يجعلني أتمنى اختفاءهم من هناك – فلا أجد، أصل الكافيه أمون، أصعد للطابق الثاني وأنا أمرّ بيديّ على الحيطان المبزّرة التي تحمل الأساطير القديمة ألواناً زيتية غامضة تغطي الجدران والسقف وقلوب العشاق المبتدئين، لا أجد أحداً، أمرّ من أمام السفراء متفحصة الجلوس غير الودودين على الطاولات البلاستيكية البيضاء المتعجرفة.
ينزّ النزق من أعماقي وأحس أن الجميع في مكان ما دوني، أقرر التوقف عن البحث عنهم، أصل زاوية الكويك بيرغر، فآخذ كاسة من شوربة العدس الساخنة وأتصنع القسدرة المتمهلة، رأسي يضجّ ولدمي صخب يصيبني بالصمم أثناء انسيابه فيّ. أتجاهل الشحّاذة الصغيرة التي ركضت إليّ حين رأتني، أحست هي أنني لا أفتش عن أحد فصمتت وابتعدت **-هي التي كانت ترشدنا كلّ إلى الآخر، كانت ما أن تلمحني قادمة حتى تركض إليّ وتتعلق بثيابي مفتشة جيوبي عن قروش أو حلوى، وتسرد لي التقرير اليومي عن الآخرين، أين سأجدهم الآن، من سأل عني ومن مرّ وتعمّد إهمال ذلك، وتعدد لي انتصاراتها في الفنّة على صديقي الذي كان يجلس معها على الرصيف أمام النمر الوردي ويلعب معها بتعريفتها المثقوبة لجلب الحظ، أو كانت تركض إليّ من بعيد وهي تمسح دموعها ومخاطها شاكية لي أنه أخذ كل غلّتها لأنها خسرت، وترجوني أن أكلّمه ليردّ لها جزءاً منها وهي تعرف أنه لن يتنازل عن قرش ربحه منها**-. جلست على بسطة كشك أراقب الخارجين من بوابة الجامعة، وأنتظر أن أرى أحد من أريد رؤيتهم. وبينما أنا أحاول التخلص من هذه الحمرة الغبية التي تصيب وجهي وأحاول الثبات والتوازن، وأحاول ترتيب الكلام الذي سأقوله، قمت ومشيت على الرصيف الممتد بين البوابة الرئيسية ومجمع النقابات، الرصيف الواسع والعابث، حظه جيد، إذ أن العشاق يفضّلونه رغم أنه لا مخفيّ ولا بعيد ولا كراسي خشبية فيه، أتحكم في رغبتي بالنظر إلى الساعة كل دقيقة، أعاندني، كي أحس بفرق ملموس حين أنظر إلى الساعة، فلا أنجح. كنت قد انتظرت طويلاً مفاتحتهم لي، نفد صبري وزمني، ذهبت إليهم، ووسط ريبتهم، قلت لهم لمَ لا تفاتحوني؟ أريد أن أكون معكم، الأيام تمرّ عليّ ثقيلة بينما أنتم تركضون لتلحقوا بها، قلبي وغرفتي رماديين وقلوبكم وعالمكم أخضرين، لم أدقر عند الشفقة التي التمعت في عينيّ ذلك العتيق حدّ الملل. الشحاذة الصغيرة التي جاءت تدور حولي بصمت متوجس والاستغراب يطلّ من وجهها، نبهتني أن الرصيف قد تجرّح لكثرة ما حككته، توقفت ونظرت إلى الساعة فوجدت موعدي قد حان أخيراً، تركت لها بعض الشوربة في الكاسة وأخبرتها أني سأذهب إلى..، صمتّ ولم أكمل جملتي، منذ الآن فصاعداً لن أترك أخباري عندها، منذ اليوم لن أفتش عنها لأخبرها بمكاني كي تخبر من يسأل عني فيحضر ليملأ الوقت الفارغ معي، لن يكون الوقت الفارغ لديّ، ولن أحتال لملئه. قطعت الشارع وسط صيحات استفسارها عن الجملة التي لم أنهها، كنت أعتزم النزول من الدخلة الصغيرة بين متحف الغبار وسيّد، نظرت داخل سيّد، كانت الطاولات

فارغة ورغم ذلك لم أمرّ من تلك الدخلة إذ أن الشحّادة ظلت تراقبني، مشيت حتى دوار الجامعة ثم نزلت في شارع إيدون، الختيار الذي كان يضع كرسيّه أمام سلام اكسبرس ويغتنم ساعة راحته في انتظار تحية الصباح من صبايا الجامعة العابرات أمامه وسؤالهن عن صحته، الختيار الأشقر بجرزته الصوفية الخضراء وسرواله الأسود، حين رأى معطفي الزهريّ بطاقيته الخضراء يطلّ من رأس الشارع، قام بحركته الثقيلة ليحضر كرسي القش الثاني والتيرموس الذي يحتفظ فيه بالقهوة السادة والفنجان من داخل المحل، كي أجلس إلى جواره كما أفعل كل يوم وأسند ظهري إلى زجاج الواجهة وأسمعه يتفاجأ كيف وصل إلى عمره هذا دون أن ينتبه، ودون أن يحب النساء اللواتي طالما أراد أن يحبّهن.. " صدّقيني.. ليس هناك ألم كبير ولا ندامات كبيرة ولا ذكريات كبيرة، كل شيء يُنسى حتى الحب الكبير، هنا يكمن كل ما في الحياة من حزين ومثير في وقت معاً.. من أجل ذلك، يستحسن بالرغم من كل شيء أن يكون المرء قد عرف حباً كبيراً أو عاطفة شقية في حياته، هذا يخلق على الأقل ذريعة لليأس الذي لا مبرر له." أسمعه حتى لا يعود قادراً على الحزن أكثر فيقوم ليكمل تصوير الكتب المتراكمة على الأرفف وأقوم خلفه لأجمع الأوراق المصورة وأكبسها في دوسيه، بينما يطلّ اليأس غير المبرر من صمته. لكني اليوم تركت انتظاره معلقاً حين دخلت قبل أن أصله في الدخلة المقابلة للفيرست كلاس، تجاوزت المكتبة الصديقة والبستان، ووصلت أخيراً للبيت الصغير بعريشة الدوالي التي تغطي مدخله، نزلت بضع درجات إلى المدخل ثم طرقت باب البيت الذي كان عبارة عن تسوية رطبة نوافذها الصغيرة معلقة بالسقف. فتح الباب لي، فهممت بإلقاء تحيتنا اليومية المختلطة بالتهليس عليه، لكن النظرة في عينيه اختصرت كلماتي وركّزتها. عاودني احمرار الوجه مضافاً إليه فركشة مفاجئة تبدّت حين حاولت خلع معطفي وتعليقه على المسمار المجاور للباب، حاولت كسب الوقت بالمرور البطيء من الصالون الفارغ تماماً، ثم عبرت إلى الغرفة الداخلية حيث كانوا، الغرفة كانت مدفأة جيداً لكن قلبي كان يرتعش، وصوتي الذي ألقى تحية هائبة بدا مرتعشاً رغم إرادتي، كان ثمة شريط بصوت أميمة الدافيء، وأوراق كثيرة على الطرابيزة الصغيرة، وبكرج قهوة يتصاعد منه البخار، وصحن صغير فيه قليل من الكعك، وفتاة وشاب من أصدقائي اليوميين الذين لم أشك للحظة أن شيئاً غير العشق كان يجمعهما، وامرأة بشعر أسود قصير لا أعرفها لكن أستطيع دون خوف أن أجزم أنها في أواخر الثلاثينيات، لمت نظرتي المبحلقة بها وصوبتها إلى الذي فتح الباب لي فابتسم بحذر وسرعة مشجّعاً قبل أن يغلق الباب وراءه ويغيب. حاولت أن أبدي رباطة جأشي وأنا أصب لنفسي القهوة دون أن يدعوني أحدٌ لذلك. تحدثت المرأة صاحبة الشعر الأسود أولاً، كان صوتها عملياً مثل ملابسها وشعرها، تحدثتْ طويلاً، ثم تحدثتْ عني بودّ لكني لم أستطع أن أكون طبيعية، كنت متوترة، حاولت أن أغتنم انشغالها بإخراج بعض الأوراق من

الكومة التي على الطرابيزة لأرفع فنجان القهوة إلى شفتيّ، في المرة الأولى رفعت الصحن وفوقه الفنجان، لكن صوت ارتعاش يديّ كان جليّاً وسط هذه الرهبة وهذا الصمت، كان الفنجان يطقطق بصحنه بخراقة، رفعت المرأة عينيها من انشغالها إليّ وابتسمت بحنان. فارتعش أنفي، لم أتصور أن أي ابتسامة في العالم كان يمكن أن تمنحني ما منحتنيه ابتسامتها، فتحتا أنفي أخذتا تنبضان اتساعاً وانقباضاً، وحين رفعت وجهها وعاودت الحديث كانت لا تشبهها قبل قليل، كانت تشبهني. في المرة التالية حين رفعت الفنجان إلى شفتيّ لم أرفع الصحن تحته رغم أن توتري غادرني، لكني لم أستطع المخاطرة بالطقطقة أو باحتمال ابتسامة المرأة السوداء المُبكية مرة أخرى. ثم تحدثت الفتاة وصاحبها، فاندهشت، إذ لم أعتقد أن صوته يمكن أن يكون حازماً هكذا، ولم أظن أن الفتاة تستطيع أن تتحدث معه بجديّة دون مزاح ودون صقاعة. كنت أجلس معهما كثيراً ولم أتصور للحظة أن يكون بينهما أوراق وكلمات وتعليمات. وحين لمت الأوراق التي أعطوني إياها متأهبة للمغادرة، وبينما كانت المرأة السوداء تساعدني في إخفاءها في قاع حقيبتي لامستْ يدها أطراف أصابعي، فأجفلتْ من برودتها واحمرّ وجهي خزياً إذ أنها ظنت أن الارتباك قد زايلني، لكن، ها هي تكتشف أن الدم لا يكاد يمرّ في عروقي في هذه الغرفة الشديدة الدفء، خرجتْ ورائي للباب الخارجي فحاولت أن لا أنظر إليها مباشرة، أخفضتُ عينيّ وأنا أدوّر المفتاح في الباب الخارجي، وحين هممت بفتح الباب قالت.. أن من لهم أيدٍ باردة.. لهم أيضاً قلوبٌ دافئة، صمتتْ لثانية ثم أردفتْ.. (رفيقة)، وابتسمت ابتسامتها الكنز. الآن، لم أستطع ولم أرد منع الدمعة من الالتماع في عينيّ، الآن كانت تستطيع أن تفهمها.

غادرتُ المدخل وصعدت الدرج، مشيت ومشيت ومشيت، كان المشي الآن لا يشبه لا الدلع ولا الحك، كان المشي الآن ينجبني من بطن أمي الأرض في كل خطوة.

كنت قد اعتدت منذ زمن طويل على اللعب بالكلام الذي أسمعه كل يوم، أسمع الكلام المتطاير من حولي فألمله وأضيف له أو ألغي منه شيئاً ليصير شيئاً يشبه الشعر، وحين بدأت المرأة السوداء جملتها عن الأيدي الباردة والقلوب الدافئة، كنت أفكر أنني لن أضيف الكثير لها لتصير شعراً، لكن، حين لفظت (رفيقة) بتلك النغمة التي توّحدنا أنا وهي والآخرين في مواجهة العالم، نسيت الشعر والكلام وضممت حقيبتي الممتلئة بالأوراق إلى صدري وسرت وأنا أمتلك العالم. وقفت أمام بوابة الاقتصاد وانتظرت الباص، كنت أرى الأشياء كلها للمرة الأولى، كان العالم طيباً ورطباً من وراء عينيّ النديّتين. وكنت أعبر الشارع فيغمرني ظِل الحور. الحور صار يظن الشارع سيلاً فيرتفع للأعلى أكثر وأكثر، وضحكات الفتيات العذبة صارت تتطاير عن الشرفات وتلتصق على ورق الحور فيصير فضيّاً. صرت أرى البيوت العتيقة والنظيفة، الملآنة بعائلات كبيرة، بأعمار وقصص، بأراجيح مهترئة وضاحكة، كلها بيتي. صار حجر البيت القديم يسلّم عليّ وأنا أعبر الشارع،

فأسلّم على أصحاب الدار الجالسين على البرندة وأقول لهم أنني أحببت بيتهم، فيدعونني لشرب القهوة معهم، ويكملون حديثهم وأصير جزءاً منه، أشاركهم القهوة وبعض الحياة، ثم أخرج. الأشخاص في الشارع كأنهم أهلي، أعرف الجميع، الوجوه والأسماء، القصص والهموم، صارت الشوارع آمنة والبيوت مضيافة، وملامحي مرتاحة.

شربت قدماي نبض الأرض من تحتي، نظرت إلى الناس في الشوارع، وكنت أحبهم جميعاً، هل كنت ساذجة؟ لكن مؤمنة، موقنة ومتشككة في ذات الوقت. كانت كلمة رفيقة تسند قلبي وقامتي وترفعني أعلى وأعلى وتؤاخيني مع كل هؤلاء الذين في الشارع.

لم أعرف هل كنت مخلصة لفكرتي أم لم أفعل، ولم أعرف لم بقيت عاجزة عن النطق بها، أعرف أنني كنت أحترق من داخلي، كنت أصرخ وأتحمس وأواجه، لكن لم أدرِ علّتي فقد كنت لا أستطيع أن أهتم بما يجب أن أهتم به، لم أستطع التفكير في إقناع أي شخص بالطريقة التي اقتنعت بها. أنا كنت آتية ولو لم يتكلموا كلمة واحدة، أنا كنت قد أحرقني ملح الغربة وشمسها الخالية من المعنى. كانت الحياة كامنة فيّ وتتحرق للانطلاق وللاعتراض على الغربة والفقر والقهر والوحدة والظلم والمُلكيات التي تمتلك قلوبنا وأسماء أولادنا، والحياة التي لا تشبه الحياة. لكن الآن، لا أستطيع، ولا أريد أشياء ناقصة، كنت أريد أن تكون الأشياء كاملة وصحيحة ونقية قبل أن أفكر في آخرين ناقصين. ولم تكن الأشياء كما أردت، لا كانت كاملة ولا صحيحة ولا نقية، كنت مقهورة أيضاً لكن لأن حلمي مكسور. أحياناً كانت عيون بريئة ومندفعة تدعوني، فأتذكر حرقصتي بانتظار أحد ما ينشلني من وقوفي على حواف الأشياء.. لا داخلها ولا بعيداً عنها، ورغم ذلك أُهملها تلك العيون وأتذكر التماع الشفقة في عينيّ الرفيق القديم، كنت مصابة بالحماس ومصابة بالخيبة في ذات الوقت، وكانت خيبتي بعيدة عن المرأة السوداء ورفاقي الصغار وعن عالمنا الصغير إنما الواثق والكامل، كنت أرى خيبتي حين أضع عينيّ على الورق فأرى النظرة التي ارتسمت على وجه الرفيق الذي كنت ذاهبة معه لاجتماع حزبي حين توقف أمام فيلا ضخمة في عبدون وأخبرني بخجل أن الاجتماع سيكون فيها. كانت لأحد الرفاق الكبار، الجهابذة. وكنت أرى خيبتي على دوار القبة، حيث التقينا أنا ورفيق لئيم، لم أستطع منع نفسي من الانفجار بالضحك حين علمت أن نتائج انتخاباتنا الداخلية قد ألغيت مجاملة لرفيق مسنّ. وحين أرى الرفيق الصغير، الرفيق الأليف، الرفيق الذي كان وهو يخبرني، طافحاً بالخزي، بعد عشر سنين، عن رفاقنا الين عقدوا مؤتمرهم الحزبي تحت رعاية وزارة السياحة في المركز الثقافي الملكي. وخيبتي حين أشاهد تلك الوحمة الشهيرة في دعاية البيتزا المؤلمة –ولكن – التي تليق بمسبّب هذا الدمار كله.

يا الله كم أرّقتني تلك الخيبات، كم أحسست بفشلنا وبأمراضنا ونواقصنا. ويا الله كم تبدو كل الأخطاء التي ارتكبناها صغيرة وتافهة الآن، كم تبدو نواقصنا غير ضارة، وكم

كنا أنقياء وطيبين، كم كنا نملك تغيير العالم لو لم نظنّنا أسوأ بكثير مما كنّا، لو كنا أقل قسوة علينا، لو لم تصبنا الخيبة ولو لم يصبنا العمر بالاستقرار.

حين توقفت عن الخيبة واتجهتُ إليّ حتى نسيت وجود آخرين في عالمي، صار عالمي ضيقاً لكن لا تحفّه الخيبات. صار مطفئاً لكن حقيقياً. صار تافها؟ هل أسمي استمتاعي بالصغائر والمهملات كذلك؟. الصديقة – ابنة الغويرية سابقاً – التي كنت أمشي معها في شارع باذخ،كانت ترتدي نظارة شمسية ويبدو عليها الرقيّ، ببنطلونها الكاروهات ذو الرجل العريضة والبلوزة البشكير المخططة بشعرها الكستنائي الساحل، هاجمت عزلتي وترفّعي واستمتاعي بالقراءة في المُنجِد قبل النوم وحديثي المحبّ عن شارع السينما وعلي الحجّار، قالت لي أنني أتشنج في التعامل مع الآخرين، وأنني لفقر منشأي، وليس لاعتقاداتي، لا أستطيع التعامل مع الآخرين الذين يتقنون الحياة، قالت أن البورجوازية هي التي تصنع الإبداع والفن والحضارة، وأنني إن لم أكن أستطيع أن أتقن الاستمتاع بالأشياء الجميلة فإنني يجب أن أحاول أن ألزق بمن يستطيعون، علّي أتعلم، وقالت أنها ومنذ أربع سنوات لم تضطر لتعدّي دوار الداخلية باتجاه العبدلي، لم تتعداه إلاّ إلى الشميساني أو في أسوأ الحالات إلى جبل الحسين، قالت ذلك بفخر و قالت أن أماكني تشاركني مع الرعاع، وأن أزماني مستلبة. رجوتها أن تتدرج معي قليلاً فلا تصدمني، رغبت هي أن نذهب للهارد روك، ورغبت أنا في القسدرة وحيدة في شوارع الدوار الأول الفرعية الصغيرة المبلولة. تكتمتُ على رغبتي وخفت من البوح بها، لكن الفزع الذي أطلّ من عينيّ حين سمعت اسم المكان الذي يعلّقون به التايت الخاص بمادونا وربما الغيار الداخلي لألفيس بريسلي كان كافياً ليجعلها تحجم عن اصطحابي إلى هناك وربما كان كافياً أيضاً لتقرر التسامح معي ولتنتشر طيبة عابرة وغير مبررة على زوايا صوتها وهي تتواطأ مع قدَم قلبي وتخبرني أنها ستأخذني لمكان سأحبه، مكان من حجر عتيق في جبل عمان، قالت أنه مكتبة ومقهى ومحل بيع شموع ونباتات خضراء، لم أكن أحلم بهذا، لم أحلم بما هو أقل من هذا بكثير، قلت لها أنني سأحب المكان حتماً، فأن يفكر أحد ما، بغض النظر عن أي شيء آخر، بتجميع كل هذه الأشياء معاً فإنني سأحبه وأحب مكانه بالتأكيد، ذهبنا، كان جبل عمان القديم، البيت من الخارج يمكن أن يُحبَ بسهولة، لكن من الداخل... كيف كان من الداخل؟ أو كيف كنت أنا من الداخل؟ من الداخل كنت مثل أحذية البالة، مهترئة وطيبة. ومن الداخل.. لم يكن الوقوف أمام السفارات هو ما قرّح قدماي بل وقوفي على جانبي المدرج الصغير لقاعة السينما في شومان ذاهلة لساعات طويلة في أماديوس وعوالم بونويل. ومن الداخل.. كنت أحلم وأحلم بملايين الأشياء ليس من ضمنها عقد عمل في الخليج، ومن الداخل كنت عديمة الطموح فيما يتعلق بالالتصاق بفئة الذين يعتبرون استعمال باصات المؤسسة عزارة. لم أكن أستطيع إقفال فمي أمام الجرسون الذي

يحتقرني لأني أطلب منه أسماء الأطعمة بالعربي كي أعرف ما أختار، ولم أكن أستطيع أن لا أنذهل من ثمن ساندويشة ثمنها أربعة دنانير لمجرد أنها تحمل اسماً أمريكياً. أما المكان.. من الداخل، حيث لا تسمع أي شيء ينطق إلا ببرادة أمريكية بحتة، فلم يفعل سوى استثارة شفقتي على هؤلاء الناس لدرجة الرغبة في كتابة العرائض والرسائل الشخصية لكلينتون وحتى التوسل له ليقبل هؤلاء المنتمين لأمريكا أكثر من انتمائهم لأمهاتهم رعايا في أمريكاه المستعصية عليهم.

يا لهذا الصباح المرّ..

خارجة من ليلة مضاءة بضوء أبيض، حزين عليّ.. مؤانس.

بين الفشل والذرائع تتردد حركتي.

وأنت.. كيف كان صباحك؟

هل قلت لك أنني لا أرى الشمس سوى ربع ساعة كل يوم هي زمن انتظاري الصباحي للباص؟ أي أنه زمن منشغل عن الشمس. أصل العمل وأغرق في انتظاري لصوتك يأتي عبر الهاتف يرسم شكل وجومي. أخبرك أن هذا اليوم له لون الشتاء المصفرّ دون طعمه، فيتضوع حزنك.. قنديل إربد النائس.

كنت أحببت هذا الصباح لو أنني مغادرة.كنت أحببته لو كان انتهاء عمان مني وانتهائي منها. لكن.. عمّان جرّبتها. ما أحس قلبها بي.. بكائي الليلي ما أيقظها.

والبارحة اشتقتُ.. ولا أحد.. ملّتني الشوارع ومللتها. ملّتني الكتب ومللتها.

وأنا الآن لا شيء.. جوفاء كغضبي. وليس الآن شيئاً.. وليس الغد شيئاً. وليس سوى اخضرار إربد المبكر وإغفاءاتي على الطريق.

أخرج من العمل، أتمسّح بليل عمان المقفر. سكن برد عمان روحي وإغماض أصابعي، الشوارع ليست إلا لي. هل من أحد رافقته شوارع عمان كما رافقتني؟ هل بقيت حافة رصيف لم تبلِ أطراف معطفي الطويل مستعجلة بردي؟ لم يبقَ شارع لم يسمعني أغني وأهذي وحيدة.

سميّتُني.. عَيْش الأرض.

أمشي طويلاً وطويلاً.. مطرٌ وبرد.

هل جاءني اليوم صوتك عبر الهاتف يعتذر لي لأنها تمطر في اربد دوني؟ لا تلم نفسك.

لكن.. ليس ثمة أحد هنا يمشي في الشوارع؟.. نمشي معاً إذن..

نتحدث.. عن الصدفة – التي جزء من الحب. ونتحدث عن الألم – الجزء من الروح، وعن الضجر–الجزء من المفتقد، عن النسيان – الجزء من المعرفة.

هل تحدثنا عن اللغة – الجزء من العجز؟ وعن النقيض – الجزء من النقيض؟ عن كيف يمكن أن يكون شيئاً لا لغة تحمله، عن كيف لي أن أكونني ولا (أنا) هناك. كيف أقتلك حين أحبك. وكيف أحبك حين أمحوك. نتحدث عن الشك في وجودنا، الشك في العضوية التي كوّنتنا. تعرف وأعرف أن صعودك، بقاءك، تساميك، كونك تَكونُك.. قتلي. وأعرف وتعرف أن احتمالاتي، صمتي وكلامي، أن أختلف وأن أبقى.. قتلك. فما الذي يجمعنا؟ رفيقان نحن ورقيقان أيضاً يمارسان الإجرام، ما يجمعنا، بقدر ما هو حقيقي وإنسانيّ وسامي، هو أيضاً واهم وأناني. اليوم.. كجزء من روحي إليك، يتضح لي صداقةٌ ما بيننا. طاردناها دوماً وحلمنا بها كثيراً وطلبناها. ها هي تأتي اليوم دونما مقدّمات، دونما دافع منك، دونما حافز.. لتبهرني.

أنك تستطيع أن تكون أنت، وكما أنت، تنشلني من حيرتي، تهتم بي، وتكون أقل حاجة لصداقتي مما أنا بحاجة إليها.

يبهجني خفيةً مسيرنا معاً، دون أن أحسّه. أننا توأم، في العبث كما في الإصرار. قد تسبقني.. لكنك رفيق بما يكفي لتمدّ لي يداً تمسح وجهي.

لماذا لديكَ أعود نحيلة.. محمرّة الأنف.. مثلجة بالركض وراءك في كلّ الشوارع؟

أضع يدي في جيبك، لا غرفة لديّ أخبئك بها، ولا شيء لدي أعطيك إياه كي تفرح. لا أمنحك سوى برد أصابعي وشوارع عمان المثلّجة.

يصفعني صمتي المفاجيء حين يمر أحدٌ – بالخطأ – قربي. إذن أنت لست معي.. أنت تكذب عليّ.. وحدي التي أراك. حسناً.. أعرف أنك لا تكذب، ليس لأنك صادق، بل لأنك لا تستطيع الكذب. أنا من يملك أن يجعلك كاذباً أو صادقاً.. أنا من صنعتك بيدي هاتين.. أنت الذي غيابك وحضورك واحد..

أمشي معي.. من دوار الداخلية إلى جسر صويلح.. السماء تندف، تتساقط نتف الغيوم بدلال كأنما تظن نفسها ريشاً أبيض، وحول الأضواء يبدو الأمر وكأن كيس طحين ضخم ينهال من السماء. أسير مع اتجاه السيارات كي لا يرى أحد دموعي..

أجعل لي أنفاً حادا وشعراً متناثراً ألقي عليه شالي الحريري بإهمال يوضح أن

استخدامه ليس لغايات الدفء بل لمجرد الاستمتاع بصحبة اللون الأخضر المتألق في كل هذا البياض،.. ثم أخلق حبيباً مات في وقت يقارب هذا الوقت.. وشتاءاً يشبه هذا الشتاء..

أخبيء يدي في جيوبي وأحاول أن أغني، لكن يرعبني موته.. يخيفني..

- كيف؟ هل يستطيع موتٌ مختلقٌ أن يفتح كل هذا البرد على القلب؟

- مختلق.. لكن.. ليس غريباً، هل تفهمين الآن خوفكِ؟

- لكن.. هل يحب هو أن أعيش؟

- يخاف عليكِ.. من رذائلك الصغيرة.

- سأعتذر له لأني أعيش، ولأن أشياء الحياة الصغيرة تسرقني لأحارب من أجلها، لأن اليومي يأخذني فلا أعود أراني.. لكن.. ألم تكن ضحكته لئيمة قبل أن يذهب؟

- لم تكن.. كانت مريرة.

- لم أحسّ مرارته، أحسست حسرتي. هل كانت ضحكته متفرّدة؟ مترفعة؟

أقطّب.. لا يعجبني هذا.. أرمقني بطرف عيني، أشد شالي الأخضر الحريري على رقبتي، وأذهب.

يعلو صوتي من ورائي ساخراً ومحتداً..

- اهربي.. هذا يليق بك.. إنها ليست المرة الأولى على كل حال، أنت تفعلين ذلك دوماً، ألم تتركيني هناك؟ أمام بوابة الاقتصاد، في البرد والمطر؟ اذهبي.. فهذا العمر لا يزيدك إلا خطايا.

لا ألتفت، لا أردّ، وأتركني هناك أزعبر، ثم أمضي متظاهرة بالغناء..

- يا غائب.. ابتهج لرذائلي الصغيرة.. فهي شاهدك على رمقي الأخير.

برررررررررررد..

أستأذن فرحي القادم أن أموت قليلاً حتى يحضر، وأعتذر لي عن قلبٍ ليس لأحد فيه غير حزن قليل وانكسار..

ليس لي فيه شيء.

لا شيء يفرق، أن نكون معاً، أن تكون غائباً لترجع أو لا ترجع، أن أكون معي.. لا شيء يفرق.

الصمت يغلّفني.. الضحكات ليست من القلب.. ولا الدمع من القلب.. لقد فرغ هذا القلب تماماً.

وأعيش أيامي.. فلا تطرق هذه الروح.. فهي جافة تماماً.

ابحث كيف تُعشب روحك.. ولا تتضايق كثيراً من غيابي. ليس غضباً ولا ألماً وليس شيئاً، إنه العكس.. إنه اللاشيء تماماً.

وزمنك اللاغي هذا يحيّرني.. ليس قصيراً كي لا أشهق ملء ليلي خوفاً عليك،كي لا أفتقد أشياءك كلها، كي لا أنسى صوتك – تعرف؟.. لصوتك طعم يكمّل القهوة – وليس طويلاً كي أعيد بناء روحي دونك، أعيد بناء أيامي دون وجودك. ليس اشتياقاً حارقاً مفاجئاً.. وليس حاجة.. إنه الآن شيء هادئ.. قد يشبه اليأس.. لا أبكي.

لا تفاصيل لأستعيدها..

كيف مررنا من بين أصابعنا سهواً للغياب.. أو لما نَحْنَه الآن..

ذهب.. مهملاً ومطفئاً..

بقيت.. خفيفة.. وقابلة للكآبة.

"أنا صار لازم ودّعكن وخبرّكن عني"..

الشارع المليء بالعيون الوقحة الكبيرة، الشارع ذو أكوام الحصمة المتربصة بإغفال أرجلنا، كان يؤوي الغرفة الصغيرة، الغرفة الوحيدة، الغرفة التي ليس بها سوى البرد والوحشة، ليس بها سوى أواخر فيروز، وأواخر العراق وأواخر أحلامنا ومدفأة مدوّرة حمراء، اهترأت مواضع كثيرة بها، لا تبعث الدفء سوى بحديدها الصديء.

لكن قلبي.. بارداً كان يتساءل عن صوتها الذي يبوح بالعمر الكثير والموجَع، لمَ الآن، الآن بالذات، ترفع رايات النهاية لتراها قلوبنا، قلوبنا التي يلفّها البرد.

أنا في البرد، لا أكترث بتسلسل الأحداث المتسارعة، لا يهمني فهمها. نجلس، جميعنا صامتون، نصمت كثيراً حتى نتساءل عن معنى اختباءنا في الغرفة. أنا أعرف لمَ أتيت، لأنني كنت أود التوقف عن التنفس، لم أكن أريد للسعة برد منعشة أن تجعلني أحب هذه الحياة. جلست محدبة -كعادتي، لكن هذه المرة، أحسستني أقرب للأرض من أي وقت مضى، كان جذعي لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً - ولم أنبس بكلمة طوال الوقت. كنت أجلس على حافة الفرشة الرطبة إلى جوار الباب والأحذية. هو كان إلى جواري، لم يكن يستطيع رؤية وجهي لكنه أحس بي، فلفّ ذراعه حول كتفي وصار يمسح على شعري، لم أدرِ إن كان مشفقاً عليّ، إن كان يتعامل معي كفتاة صغيرة كانت متحمسة وبلهاء، ثم صمتت وذهلت، لكني أدري أن كفّه الكبيرة بأصابعها النحيلة كانت تتحدث مع شعري، وتربّت على صمته. وحين ازداد صمتي وضع رأسي في حجره مثلما كانت جدّتي تفعل، وظلت أصابعه تتخلل شعري، ويده الأخرى صارت تمسح على كتفي. فجأة أحسست أنني أكثر حزناً من أن أحاول إخفاءه. سالت دمعتي عبر زاوية العين على جانب خدّي، رفعت عيناي إلى وجهه فابتسم وامتدت أصابعه الدافئة وفتحتْ مسرباً أوسع للدموع المحبوسة في عيني.

في الأسابيع الماضية، كنا نأتي للغرفة، فيهاجم البعض حانقاً -**لكن واثقاً من قربنا المتكتم عليه**-موقف الحزب من العراق، والبعض يؤيده باعتباره ليس انفعالياً ولا عاطفياً -**بما يليق بحزب عريق لا تسيّره الانفعالات المتدفقة للجماهير**-. أحدهم -**وكنت أحبه أكثر من الجميع**- كان يؤيد موقف الحزب لكن بأسى، كان يريد أن يكون الموقف منطبقاً مع وجهة نظره الخاصة، ليستطيع أن يندفع ويتهور ويتحدى ويطلق صوته بإيمان ويستقطب المؤيدين لموقف الحزب كما يستقطب الأنبياء حوارييهم، لكن لم يستطع، ولذلك كان يشيح بعينيه ويُخفض الذلّ صوته. أنا كنت جدباء، كان وجهي محايداً وقلبي محايداً، لم أستطع أن أفكر هل أنا مع أو ضد، أو أي شيء من هذا القبيل، فكّرت أن اتخاذ موقف ليس هو ما يهمني،

لم أستطع إخبار الآخرين بما كنت أحس، كأن لا علاقة لي بأي شيء، لم أستطع أن أنطق بأي من الكلمات المتعلقة بالمناسبة، السيادة، والوضع الصحيح، والحدود المرسومة بالمسطرة، و تصغير كوت. لم أستطع حتى المتابعة، وكنت أعلّل غيابي بالصداع والمرض حتى انكشفت. الجميع كان يستغرب صمتي ويريدني أن أقف في صفه، ولما طال وجومي، صار الجميع يتطلعون إليّ بارتياب، ثم أهملوني، ظنّ الحانقون أنني لا أملك من الجرأة ما يكفي لأعارض موقف الحزب، وظن المؤيدون أنني لا أملك من الانتماء ما يجعلني أقف معهم. الوحيد الذي كان قلقاً عليّ، الذي كان يرسل أصابعه النحيلة والدافئة لتسألني ما بي؟ كان يخاف عليّ من صمتي. قال لي أنني لست محايدة، لكنني أشعر بالحزن من الأمر كله، ليس من هذا الشيء فقط ولكن لأن كل شيء كان ينهار. جدار برلين، والعراق، والاتحاد الذي كان تطبيق أحلامنا الجميلة. أردت أن أقول له ان الشماتة كانت تلتمع مشهرة في وجهي فتعميني، لذا كنت أعود لظلمتي. أردت أن أقول له أن ما أوجعني في " انهيار " الاتحاد السوفياتي كان صوت فيروز الشائخ. ما أوجعني، أردت أن أقول له أن ما أوجع قلبي في العراق لم يكن العراق -**كان شارعاً في الزرقاء يجاهد ليخرج من عتمة الفجر، كنا نستيقظ على الهواتف التي تأتينا من بعيد، لتحذرنا. كنا نفيق على الجار الذي يزعق بالجميع أن يتوجهوا للملاجيء، كنت أخرج من دفء فرشتي إلى البرد والدرج الطويل المعتم، والحجّة البيضاء التي كنت أرافقها على طول الدرج لأوصلها إلى.. إلى الملجأ !. وصلت الشارع، كان يزدحم بالرجال، رجال من كل الأعمار، كل منهم يردد شيئاً ما، فرِحاً، أو متوتراً، أو مبالِغاً. الشارع كله يتحرك من اليمين إلى الشمال، من البيوت إلى استدعاء الاحتياط، كانوا مرتدين ملابسهم العسكرية ويركضون، لا أحد يمشي، كانوا مستعجلين، وفي البرد، كانت النساء واقفات على جانبي الشارع يكملن وضع الملابس الثقيلة على أطفالهن ويتوجّهن للملجأ، إحداهن زغردت، الزغرودة الفقيرة جرحتني، أي توق؟ نُفيق على الحنين، هل كان حنيناً؟ إلى الملاجيء؟ هل كان للملاجيء؟ الذي أوجعني كان ركض الرجال وظنّهم**-. ثم خفت إن أخبرته بما أفكر أن أبدو مجنونة. لم أكن أستطيع أن أتضايق من ذات الأشياء التي تضايق الآخرين، كان ما يضايقني مختلفاً جداً، وربما غبياً أو لا علاقة له بالأمر. فطال صمتي حتى خفت أن أكون قد فقدت القدرة على الكلام أو البكاء. وحين غنّى تلك الأغنية اليائسة بذلك الصوت المتعَب، شعرت بالاشتياق للحياة، فسالت دمعتي اليتيمة. هو الذي أمسك دمعتي بأصبعيه، فرأى فيها مخاوفي، نظر إليّ مستكثراً أن أخاف من عدم فهمه، فابتسمت لدمعتي ولتفهمه.

بين مراقبة الدهشة بعد ما فات من زمن دهشتي، وبين لذة إيلام وجوه مفرغة من

الألم أو المعرفة إلا لما ينتمي لها،كنت لا أنتمي لشيء، عابرة أكثر من كلمة لا تثير شيئاً.
عابرة حتى فيّ.

أصل بوابة الجامعة الأردنية، أي معنى لهذه الأشياء البيضاء التي على البوابة، الأشياء التي تشبه حبة البوظة ذات العشر قروش من دوار فراس، كنا نسمي هذه البوظة بالذات، التي لها هذا الرأس المخروطي.. " إيما "، ونضحك، نضحك كثيراً وتحمر وجوهنا، كما لو أننا قلنا كلمة سافلة.

أصعد الدرج الحديدي لجسر الجامعة لأعبر الشارع – أمانة العاصمة تستعير نظرية المشابهة الخاصة بي لجسرها الذي يقطع الشارع ولا يقطعه – أي لون لهذا الجسر، الرمادي. لو أملك أن ألوّن الأماكن التي أعيش فيها. لكني، فيما يتعلق بملابسي، لا أختار ألواناً صريحة، كنت أشبه أمانة العاصمة، رمادية، تذكرت أنني أكره شكلي وأكتئبت.

وصلت الجانب المقابل من الشارع، صعدت باتجاه نيفين، ومقابلها تماماً دفعت باباً زجاجياً ثم صعدت درجاً رخامياً عريضاً يوحي بالطمأنينة، وصلت المعمورة، نظرت بسرعة أحاول تحديد أين سأجلس – مع الخبرة، لم يعد التفات الجميع صوبي عند دخولي يدفعني للتفكير بارتباك بوجود سبب لذلك – وجدت طاولة النافذة فارغة، أسرعت إليها، اصطدمت عيناي بشاب وفتاة يجلسان منزويين وراء الطاولة المجاورة، هممت بالتراجع لولا النظرة التي رشقتني بها الفتاة. أي عدائية تمتلكها الفتيات اللواتي كان حظهن حسناً –**من وجهة نظرهن**– أو هدفهن واضحاً –**من وجهة نظري**– حين يكنّ جالسات بترفع مرسوم إلى جانب أهدافهن. قهرتني نظرتها، فعاندت راحتي ومضيت إلى طاولتي وجلست معطية إياهما ظهري، أردت إهمالهما وطلبت قهوة. أخرجت ورقة من حقيبتي وفتّشت عن قلم فلم أجد إلا قلم رصاص. أمسكت القلم وتحفّزت، كانت الكآبة تحتلّ روحي. ما الذي يوجع هكذا؟ كان فيما مضى من العمر، كان هذا الرأس مليئاً بما أردت قوله ولا زمن يفسح لي نفسي أتحدث إليها. ثم صار زمن لا لغة فيه توصلني إلى ما أريد. وها أنا.. أحتال على كتابتي لتأتي فأضع رأس القلم على الورقة، لكني أكتشف أن يداي نسيتا الرصاص واحتكاك الرأس الشهيد على الورقة. يداي غابتا في أيامهما السريعة واللامبالية. أتوقف عن

احتيالي فأخفي القلم والورقة عميقاً في حقيبتي وأعود لأفكر في نظرة الفتاة الجالسة ورائي، كان في نظرتها إليّ شيء غير الحذر، قد يكون الاحتقار، لقد حكمت عليّ من ملابسي. كان للفتيات طريقة حقيرة في تصنيف الشخص من ملابسه تذكرني بطريقتي السابقة في استبعا الناس من دائرة المحظوظين الذين أسمح لنفسي أن تنسجم معهم، كنت قاسية في أحكامي وبدائية في اعتمادي حدسي، لم أكن لأكذّبه بخصوص الانطباع الأول الذي يتولد لديّ عن شخص ما. فيما بعد، حين تعلمت القراءة والشك، صرت أخاف أن أضيع أشخاصاً يمكن حبهم، بسبب انطباعي الأول وحدسي. وظننت أن كثيراً من الناس لا يمكننا أن نحبهم إلا بعد أن نجتاز نفورنا الأول منهم، وبعد أن نترك لنا فرصة معرفة دواخلهم بغض النظر عن شكلهم الخارجي **–يا لهذه الجملة المبتذلة، هل كان ضرورياً المرور بها لنكبر ونكف عن الحماقات؟**– وبعد المرمطة التي قادتني إليها نظريتي هذه، بعد الآلام والخيبات والانصعاق بقذارة الآخرين، ارتددت لسهولة التعميم، والاعتداد حتى بأخطائي التي كانت ستفسد عليّ معرفة أشخاص رائعين، واكتفيت بالاقتناع بروعتي الذاتية والاكتفاء بالحد الأدنى من الآخرين. لكني.. ولغايات الموضوعية تركت باب الاستثناءات مفتوحاً لحالة محددة فقط، هي العينين. كان لدي الاستعداد لتكذيب الشكل الخارجي والانطباع الأول مقابل أن تكون العينان صادقتين.

هذا الاستثناء كان تكريماً لذكراي.

كنت أقف على دوار اليرموك ذات مساء شتوي صارم، نزلت من باص التكنو – **اسم التصغير الذي أطلقناه على الجامعة التي نقلونا من اليرموك إليها عقاباً أو نفياً لأننا كنا نحاول خلق عالم أجمل. كان لها اصطناع زوجة أب، ورائحة الاصطياد في الماء العكر، رائحة تعلق في أرواحنا فنسرع في الهرب من فراغها الفسيح ووحشتها المرعبة وتماثل أبنيتها المثير للسخرية إلى حيوية اليرموك وألفتها، وشبابها الذي نتدفق به، فتغسلنا من الروائح العالقة بنا وتطهّر نفوسنا من البغض والمرارة والوحشة، ثم ترسلنا إلى بيوتنا أنقياء**– على الدوار ولم أدخل اليرموك عقاباً لي على حماقات ارتكبتها خلال النهار. لم أحاول أن أسامحني، جفّ قلبي لكثرة ما سامحتُني، جفّ وجهي لكثرة ما اغتربت عني. وكان البرد يقرص كل جزء متاح له من جلدي ويدفعني للركض مستعجلة الوصول لغرفتي، والمطر يزيد وحدتي في الشوارع الخالية تماماً إلا مني، والعتمة طاغية على تفاصيل الشارع الذي تحاول مصابيحه بالكاد أن تضيء الأعمدة التي تحملها. مرّ شاب وفتاة على الجانب الآخر من الشارع، يمشيان بتمهل مستفزّ أجبرني على رؤيتهما، ولم تمنع المسافة القسرية بينهما والدفء المبددّ في أكفّهما المنفردة، استيقاظ كل الأحزان في قلبي دفعة واحدة. كنت طوال النهار أطارد عينين تلهوان بي **–تلك الأوقات.. حين يبدو لك سعارك هو الحقيقة الوحيدة الثابتة، حين لا يكون متسع في أي شيء فيك للتفكير بغير**

ذلك. تجتاحك الرعشة حين تنغرس النظرة المقابلة في عينيك، حين تتكسر نظرة الآخر على وجهك. تتكسر.. نعم. تضرم النار فيك، لا تفكر بغير أنك تريد هذا الوجه، تريده يُجنّ، يجذبك إليه بعنف وتغيبان، هذا الوجه الذي تعرف أنه ليس حبيباً ولا قريباً، هذا المشتهى، هذا المفقدك صوابك ,تنزلق النظرة، تتدحرج على وجهي، تشبّ غريزتي، تنشب أظافرها فيّ، تميتني لهفة، النظرة المختلسة إلى أسفل عنقي كأن فيها عتاب على عري رقبتي، لوم. تجتاحني رغبتي الآثمة، أليس الوجه أكثر عرياً من أي شيء؟ يحمرّ وجهي، أثبت عينيّ بتينك العينين فترة أطول من المعتاد وفي آخر النظرة لا أستطع، تفضحني عيناي، الاشتهاء فيهما، أكسر عينيّ فأحس بسخونة الدم يندفع إلى وجهي، يبين ما لم أحاول إخفاءه- ورغم ذلك أجتهد لخلق ذريعة تمكنني من تأمل الوجه الذي يحملهما. لذا، فحين ظننت أنني أريد أحداً يقترب مني ويكون لي كما هذا الشاب لفتاته، سكنت، توقفت عن البرد والركض، فكرت أنني لم أكن أريد أن أتجاوز العينين، لا أريد الصوت ولا الكلام، لا اللمسات الدافئة ولا تعب البدء في الحب من جديد، لا أريد الجسد الذي يحمل العينين، لا أريد سوى دهشة حنونة أعرف أنها تطلّ منهما، وتفهّم مستعجل فيهما. أفقت من زهدي على إحساس متضخم بعينيّ، كان جسدي قد صار شفافاً مثل الزجاج، كانت أضواء السيارات المواسية التي تعبر الشارع تخترقني وتنفذ للجانب الآخر مني، كان العمود الذي أمامي يُسقط ظلّه كاملاً -**عَبري**- خلفي، لم أكن أقطع عليه تجاوزه لي. ثم كانت عيناي هما كل جسدي، كانتا باتساع الرغبة في العينين اللتين لا أراهما للعاشقين المبتعدين، كانتا تلمّان كل شيء على الإطلاق، من دوار الجامعة وحتى دوار النسيم، وكانتا تخفقان مثل معدة متوترة، أو قلب. لشدة اتساعهما كان بإمكاني أن أراهما. كانت عيناي تتسعان حتى يصير جسدي كله جزءاً منهما، أو حتى أصير بلا جسد.

أمام بوابة الاقتصاد، في الليل الكثيف البارد، في الزمن البريء، تركتُني هناك ولم أعد إليّ، لم يكن بي حاجة إليّ. بتلك الشفافية الخرقاء؟ وذلك الاتساع؟ لم أكن لأتمكن من الحياة دون أن أنكسر.

أرفع فنجان القهوة إلى شفتي، لكن الحافة الثخينة للفنجان تقف بيني وبين قهوتهم الباردة، أشكر الحافة الثخينة على تجنيبها لي من قهوة حلوة وباردة، وأغادر تاركة الأهداف الثمينة لصواب الأحكام المتسرعة، غير مكترثة بافتقاري للأناقة.

هذا العالم يوجعني، عمري يوجعني، وجنسي يوجعني، كتابتي توجعني، والموت.

الموت يذكرني بسقف السيل، أذهب إليه، أجعل سيارة تقف إلى جانب الشارع ولا أحد فيها، أجعلني داخلها، جالسة، أسند رأسي إلى راسيّة المقعد، بطرف قدمي اليسرى أخلع حذائي من الأخرى، وأثنيها قليلاً تحتي وأغيب بعيداً، بعيداً جداً. أجعل وقوفي أمام

الكنيسة الصغيرة المخفيّة وسط السوق بإتقان، كيف عرفت بوجودها هنا؟ لم أعرف. جاء مسيحيون فقراء، اختفوا في المدخل المرشوش بالماء، أغلقوا الباب الأسود الكتوم وراءهم، وأطفأوا الضوء، غابت الكنيسة تماماً كأنني لم أرها أو كأنها هاربة من خوف قديم.

المرأة التي جاءت من بعيد، لم تكن قد انتبهت إليّ بعد حين لم يعد بإمكاني إزاحة عيناي عنها، كان نَصّي غائباً وراء برقعها القديم، التقطت نظرتي، واقتربت طالبةً بريزة، صوتها والبريزة كسرا نصّي فيها أو ظنّي.

أجعل بسطة أشرطة على الرصيف الذي يستلقي إلى يميني، ويكون شاب يغادر العشرينيات بصعوبة مرتدياً جينزاً باهت وقميصاً أبيضُ من نظرتي إليه، يغلق المسجل الذي يزعق بأغان تركية -**لم يكن أحد هنا يعرف هذه اللغة لكن آمان-هم كانت تشبه أوف-نا، وكان حزنينا واحداً**- حتى ينهي المؤذن أذانه.

أحس بالرغبة في كتابة شيء عن هذا المكان وعني، أخرج قلماً وورقة وأجعل حقيبتي مسنداً، فألمح ريبة شاب البسطة للحظة، لكني أكمل الكتابة فيضع أغنية ويطلب مني أن " أفرد ضيّي في عينه "، لكن عيني تدمع من الغبار الذي نثره مرور باص المؤسسة الأزرق -**ألم يكن أحمراً دوماً**؟ -. العراقي المشتاق رآني أكتب ما قرّر هو أنه رسالة – **من أين له غرور المثقفين ليعرف أنواعاً من الكتابة غير كتابة الاشتياق**؟- رآني أمسح الدمع الذي سببه الغبار فظنّ أنني كنت أبكي وكانت لهفته بادية وهو يغيّر الشريط لآخر أكثر حيوية علّي أفرح، لكن كان يناسبني أكثر أن أصدق ظنّه.

على طاولة ما عليها سوى فنجان واحد من القهوة، كثير من السجائر المحترقة، ورقٌ لحبيب رسمته هائماً في شمال البلاد يفتش عن وجه افتقد ملمسه.

كان اليوم لاكتشاف انتظارك، كان موعداً وليس معك. في مكان انتظارك الدائم، كنت أنتظرك وأنتظرني، وبينما كنت أحاول عبثاً إزاحة عينيّ عن شاب يرتدي بلوزة مقلّمة قد تشبه أخرى لديك كانت تجتاحني الرعشة المقاربة لحضور وجهك. كنت كأني أوشك أو أشبه اللحظة الأخيرة من انتظارك.

مديرةً ظهري لكل الذين يثرثرون بالقرب مني بأصواتهم المرتفعة مع حبيباتهم.. كلهم ليسوا وحيدين..

أخرج للشارع.. "لا مطر فضي لهذا اليوم "

روحي جوفاء. وحيدة.. وحيدة.. عدتُ لما أكره، أفني أيامي بيديّ.

عشر ساعات تستلّ الحياة مني كل يوم لتبصقني في النهاية برغبة وحيدة هي الارتماء على سريري والاستغراق في الموت، تتوقف أيامي كل أسبوع عند أول يوم، تغادر الأيام تسمياتها، ويصبح كل هذا اللهاث يوماً واحداً.

متروكة ها هنا.. في وحشتي وغباري. الغبار عالق في بيتي وقلبي، وحيدة أكثر من أرملة مسنّة، مهجورة وبائسة. بيتي مهجور وأنا فيه، ساكن وكئيب. وروحي بليدة كما لا ينبغي.

وحيدة عدت إلى عمان – عمان الجحيم، عودة للهشاشة والانفجارات البكائية يومياً، عودة وإصرار على تكرار الخيبة.. عائدة لأبقى هنا طويلاً.. لأفعل ما لا أحب.. عائدة لأحرق هذا العمر يوماً بيوم.. ولا أرى ما يبرر تعبي من أجل ذلك.. ألا يحترق العمر دونما تعب؟

لكن.. هنا –**رغم وحدتك**– ألا تخرجين لمقابلة السماء كل صباح دون الحاجة لتلك الجرعة اليومية من الصراخ والأكاذيب والعنف وسمّة البدن السابقة على أي خروج لا مبرر مصيريّ له؟ ألا تلامسين الهواء دون وسيط يتحكم مزاجه في خروجك ودخولك؟ ألا تشربين الشوارع بباطن قدميك دون أن تفكّري في مبرّر قوي تردين به في حال أن رآكِ أحدهم في مكان غير مألوف –**له بالطبع**–؟ ألا تملكين حق اهتراء حذائك واهتراء قلبك؟.. حق المطاردة واللهاث وراء اللاشيء.

أصل للمكتب.. أفاجأ أن للبناية اسماً.. لماذا الزيتونة؟ على أي أساس.. وأستغرب من التغيرات التي تطرأ على عمان كل يوم، لتشبه مدناً أخرى.. بيروت.. القاهرة.. دمشق، أي شيء سواها.

أقف أمام المصعد، كثيرون غيري يقفون كذلك. أصعد.. أفتش لعينيّ عن موضع لا يصطدم بعينيّ آخر في اكتظاظ المصعد، التقاء العيون هنا لا يبعث إلا على الريبة.

فيما غاب من الدهشة، كنت أظن بالعينين ما فاجئني بعكسه، كنت أظن أنني قادرة على رؤية مشهدين متباينين بعينيّ الاثنتين، ما معنى أن تكونا اثنتين إذن؟ أليس لكل منهما وظيفتها؟ هل كنت حولاء وسحبت العالم وراء تفرد غير مقصود، لكن لائق؟. لا أنسى خيبتي، كان الله أقل مما توقعت، لم يكن كلّي القدرة، كان في عمله -**نحن**- ما هو فائض، والفائض كان وقتها ملتصقاً عندي بالابتذال أو الإهانة. أما أنا، فكنت سأخلق أكثر من عينين اثنتين، وأعطي لكل منها مساحة مشهد متمايزة، كتعويض عن نقص الحواس، لم أكن لأسمح بانعدام القيمة هذا.

يرتفع المصعد محتقراً الجاذبية ومستقوياً بالكهرباء، فأرى أمامي عيني المدورتين مفتوحتين على اتساعهما عندما اكتشفتُ أن الجاذبية ليست مزحة من معلمة العلوم وأنها ليست مرهونة بزمن الحصة، حين رأيت أنها تمتد خارج الحصة وأنها تكتسب شرعية بإجماع معلمات العلوم ثقيلات الدم، حاولت أن أجد من يطمئنني إلى أنها مثل معادلات الرياضيات، لا وجود لها في الحياة، إنها ليست أكثر من أسلوب لتجميع العلامات وبالتالي علاقتي الوحيدة بها هي الحفظ، لكني وجدت ما هو أسوأ، وجدت أنها معرفة شعبية تصل حتى للختيارات، كنّ يعرفنها ويقررن بها، بل يتجاوزن المعرفة إلى التطبيق وطرح الأمثلة. ذكّرتني إحداهن بالفتيات اللواتي يتعلقن بالأبواب في أول البلوغ، سألتني إن كان هراء هذا الطول الذي يكتسبنه؟ كانت تشرح لي كأنها توبخني، فلم أجرؤ على سؤالها - رغم أن قصر قامتها يدفع السؤال دفعاً خارج فمي - إن كانت هي قد خُلقت قبل الجاذبية أم بعدها؟. لماذا في هذا الموضوع بالذات تبدو العلوم أقرب للأمور الحياتية، وتبدو قابلة للانطباق هكذا؟ أي إثبات يتمثل في سقوط الأشياء على الأرض بعد قذفها؟ لم يكن هذا يثبت شيئاً لي. حاولت أن أجد من يقف إلى جانبي، لم أجد غير الصغار الذين يخافونني، لكن داخلي كان مكتشفاً كذب هذه المؤازرة، فإن أحدهم لم يستطع لفظ الكلمة.. جاذبية.

حادثة الجاذبية هي بداية تكذيبي للأشياء، بداية انفصالي عن المعرفة التي اكتسبها. غادرت الأيام التي كنت أنجذب فيها إلى اللهب الأزرق المختال وتتركني يدي مغادرة إلى الوهج الغريب، فتعلو على صراخي رائحة تشبه رائحة الدجاج الذي كانت أمي تشعَوِطه على النار لتخلّصه من زنخته. كنت عندها أكتسب معرفتي وأصدّقها. لكن هذه

الأيام لم تعد تمنحني أجوبة على أي شيء، لم أعرف ماهية الجاذبية، ولم يعجبني اسمها، هل كنا نحن قطب مغناطيس يعاكس تلك القوة فتشدّه إليها؟ وجدت أن الأنسب لي أن أفكر بها كما أفكر بالشيطان الذي يسكن باطن الأرض. لكني لم أكن مقتنعة بالشيطان أصلاً، فقد حفرت أرض الحارة ثم أرض الحاكورة ثم أرض الحمام - بهذا التدرج، هل كنت أظن الشيطان يحتاج لهذا القدر من الخصوصية؟ - حفرتها مرة بعد أخرى، في كل المواسم، في الليل والنهار، بوضوء ودون وضوء، مرتدية اليانس وعارية، بمفردي وبالاشتراك مع اخوتي، رغم إدراكي للعقاب الذي ينتظرني إن شكّ أحد بدوافعي - لمَ كانوا يدافعون عن سكينته؟ ألم يكرهوه كما كانوا يظهرون؟ - ولم أجد أي دليل على أي ساكن هناك. وفي أي عمر، لم يكن هناك من يتعب نفسه ليشرح لي اضطراري لتقبل المعارف غير الملموسة. وهكذا ظللت أراوح بين القوة التي لا أعرفها والتي تسحبنا من أعناقنا لتمطّنا للأعلى وبين القوة التي لا أصدقها وتختبيء تحت الأرض جاذبة إيانا من أرحام أمهاتنا لنسقط على الأرض ثم نبدأ بصراع التطاول للأعلى ضدّها. بعد ذلك حين كنت أتسمّر أمام التلفزيون لأشاهد الصور المتحركة حيث يتنازع شخصان على ثالث فيشدّه كل من جانب، لم يكن ذلك الوضع يضحكني، بل يذكّرني بهذين المجهولين الذين يتقاسمان جسدي بين الأرض والسماء. كان قد خطر ببالي ذات مرة، أن هذا الشيء يشبه صراعاً بين الله والشيطان، كان الله يجذبنا للأعلى والشيطان يعاكسه، أصبت بالخوف من هذا التفكير، أزحته بسرعة من دماغي، وكررت " أستغفر الله " ألف مرة، ثم قرأت " قل هو الله أحد " حتى نشف ريقي. وبالطبع، كان لإزاحة هذه الفكرة والشعور بالخوف والكفر، مفعولاً ساحراً في دفعها باستمرار إلى دماغي، وتحويلها إلى أحد أحلامي التي تتكرر دوماً.

ونتيجة لمعاناتي من هذا الإحساس بالتطاول على الله، كان أن وجّهت نقمتي إلى الجاذبية، وإلى الكهرباء، وإلى كروية الأرض. كانت هذه الأشياء كأنها موجهة ضدّي مباشرة، لتقهرني، أو كي لا أفهمها. ولذلك، فحين كبرت تعلمت كيف أهاجمها بذكاء، وأن أستفيد من الأشياء التي لا أؤمن بها، بل أن أبالغ في إتقان تذليلها لخدمتي كتعويض عن عدم قدرتي على تفسيرها، فبالغت في الطول رداً على تلك الوقاحة المسماة جاذبية. وشكّلت جمعية تصدر نشرة دورية لمهاجمة المؤمنين بكروية الأرض واتهامهم بالسذاجة، ولم أعدم علماء كبار يتبنون وجهة نظري، والعديد من المهووسين الذين أغرقوني بالأدلة النافية لكروية الأرض. وتخصصت في دراسة الكهرباء، بكل أكاذيبها، بكل افتراضاتها، بكل الهراء المبنّي عليه عالمها، كي أهاجمها من قعر دارها، وكي لا أترك لافتراض كاذب أن يدخل من جهلي ليشكّكني فيّ.

كان لهذه المعارك الطاحنة فضل خلق عالمي الخاص بي، كنت لا أنتمي للعلم فقد كان مبنياً على افتراضات كاذبة. ولم أنتمِ للخرافة، فقد كانت عاجزة وانتهازية، كانت تستخدم

العلم بينما تناقضه. كنت أتظاهر بفهم الشيء أو الإيمان به، بينما داخلي لا يصدق شيئاً من كل هذه الهراءات، كنت أستغرب لم يحشر الكبار أنفسهم بهذا الوضع المحرج، ليس عليهم ادعاء الإيمان بشيء ليكون بإمكانهم استخدامه لتسهيل حياتهم، لم لا يستخدمونه دون أن يذلّهم، كنت أرى الأشياء تكبر وتطغى لتصبح أكبر من خالقيها. لم يقنعني أحد بشيء، لم أجد في حكايات أمي من يجيب أسئلتي، ولا في الكتب. والغيب كان يتكيء بوقاحة على الملموس، ليواصل إدهاشنا واستمراريته. صار لي عالماً مليئاً بقناعات لم أكن مضطرة لتفسيرها، مبررة ذلك لنفسي، وغافرة لها عجزها مقابل عجز البشرية عن التفسير، لكن دون أن أكذب على نفسي، كنت أعرف عجزي، وأنتظر المغادرة لأجد الأجوبة هناك في الجنّة، حيث الأشجار الخضراء تحمل الأجوبة على أغصانها، وحيث الأشخاص الذين تصادفهم يجيبونك قبل أن تسألهم، ويدورون في الجنة مطلقين الإجابات التي حيّرتك، إجابات وتفسيرات وشروح كثيرة، تكثر ثم تكثر، ثم تصير لغطاً يضايقني، ويخنقني، ويغلق الهواء من حولي. أرفع يدي لأتأكد من فتحتي أنفي فتصطدم يدي بعامل المصعد الذي يبحلق فيّ، أتلفت حولي فأجد الجميع ينظرون إليّ بنفاذ صبر ويكررون نفس الكلمة، السابع.. السابع، بنظرة متشككة وبإلحاح، السابع.. السابع، بمختلف الأصوات، وبنبرات تراوح بين التهديد والشفقة، وأنا أفكر بعلاقتي بهذه الكلمة، أيّ سابع، سابع ماذا؟، أنظر إليهم باستغراب، أدير وجهي باتجاه باب المصعد فأرى عامل المصعد يفرد يده خارج المصعد ومنحنياً أمامي بطريقة مسرحية، فأتذكر أن السابع هو الطابق الذي أعمل به، وأنزل من المصعد وسط إلحاحهم الذي أعرف أنا أن له دافعاً لئيماً، كنت أعرف أن جميع من في المصعد ينتظرون اللحظة التي أدخل أو أخرج فيها منه. وكان ذلك يسبب لي خراقة إضافية وحرجاً في الدخول والخروج. كنت أرى المصعد مستقلاً بذاته، لا أراه كجزء من البناية، بل غرفة معلقة في الهواء، تتأرجح بين الأرض والسماء، ننقذف داخلها أو خارجها. لذا لم أستطع الدخول إليه كامتداد للأرضية التي أقف عليها. كنت أقف خارجه وأنظر إلى البقعة التي سأهبط فيها داخله، أمعن النظر فيها كأنها على وشك الاختفاء، ثم أضمّ قدميّ واستعدّ للقفز، وحين أتأكد من اليد التي تمسك الباب بانتظار دخولي وأتأكد من ثبات المصعد، أقفز داخله مثلما كنت أقفز داخل أرجوحة العيد التي كان إخوتي يخدعونني ويبدأون التأرجح فيها قبل دخولي. لم أكن جبانة، لكن المصعد، اللئيم، كان كأنه يوشك على خداعي ولعثمة حركاتي. حين كنت أخرج منه، كنت أنقذف كأن أحداً دفشني منه، كان آلية دخولي وخروجي محكومة بفهمي لفكرته، لذا، كانت تتصاعد ضحكاتهم المكتومة وراء ظهري.

أفتح باب المكتب فتهب عليّ رائحة دخان مزمنة، وأصوات مذيعي البث المباشر من الراديو الذي لا يسكت. أدخل غرفة مكتبي المجاورة للحمّام برائحته النافذة، وأعبر منها إلى موزع معتم ثم إلى المطبخ. أتحرك بحذر كيلا تلامس اسطوانة الغاز بنطلوني الذي ما زال مدللاً كعروس، وبحذر كيلا تلامس يدي الغاز القذر ذي الشعلة الآلية، وبحذر كي لا يلتصق شعري بخزائن المطبخ الدبقة. أعدّ قهوة تزاوِج الكالح بالحامض فأتذكر درويش، كان بحر بيروت يوقفه أمام قهوته التي يهديها ناراً لا تليق بها ويخبّئها كي لا تعشق الكلام فيفسدها، وبينما أنتظر فوران القهوة، مطلّة من النافذة الصغيرة على الشارع، أفكرّ أن أقارن مشهدي بمشهده لغايات الرثاء على نفسي، أتعب سلفاً وأقرر ألا أفعل. أعبث بإبرة الراديو، فتطلع لي.. يا حلو ناعم يا تفاح، تعيدني إليّ أيام الجامعة. يا قلقنا الدايم يا معلّم.. قلقنا كثيراً ولم نتعلم شيئاً. صباح الأصوات التي تصغّرني خمس سنين مرة واحدة، للحظة.. يغادرني انطفائي، أستعيد انتعاشي وصباحاتنا الشتوية، الشمس الباردة والشاي بالنعنع، ابتهاجي الخبيث حين كنت أنهي محاضراتي مبكرة وأغادر إلى اليرموك قبل أن تستيقظ. تعيدني الأغنية.. لم يتغير شكلي لكن قلبي تغيّر. صباح الحزن إذن.. صباح غياب السبب عن جرح يظهر كلما أخفتْ غيمة صغيرة وجه الشمس. صباح الذين ما عادوا يعرفون ما يريدون. صباحهم يحاولون الأنسنة قليلاً، خارجين من غبار المعارك الداعرة ومحاولين استعطافنا قليلاً، غير ملتقطين سوى شكل غبي وساذج للفكرة. صباح الذين ما زالوا منجرّين وراء صورتهم السابقة عنهم، مُحرِنين بنفس اللغة والنظرة المتجاهلة إشفاقنا أو سخريتنا. صباحي.. أدرك أن لا مفر من حزني وبداية الشهر الأخير من العام، سوى حزني وأواخر الأعوام. سعيدةً بامتلاكي سَمَعي، أحتفل به بالعبث بإبرة الراديو والبحث عمن يقولني – يغنّيني، يطلع لي الحجّار الجميل، يوجعني بـ" مكتوبالي" ومزمزته لحزنه، أتابع بحثي ومزمزة الوجع. ثم.. يندفش الباب بعنف وتدخل الفتاة –**هل كنت فتاة وحيدة قبل قليل؟**– الطويلة بتنورتها البيضاء، أو كانت الفتاة البيضاء بتنورتها الطويلة؟ لم أعد أذكر، لها وجه غاضب وكدر، يختلط الصباح الذي تلقيه عليّ بصعوبة مع تأففها الذي يبعث رائحة سيئة أمام وجهي، مع صوت ارتطام الباب الذي أغلقته وراءها، تخرج من حقيبتها سيجارة طويلة، تشعلها وتزفر بنفاذ صبر، ثم تسحب كرسياً وتضعه أمام النافذة، تصعد عليه وتنظر بتمعن إلى شكلها في زجاج النافذة مستخدمة إياها كمرآة رافعة طرف بلوزتها واضعة إياها بين أسنانها، ولا تبالي بالنظرات المحتملة من العمارة المقابلة، لا تبالي بالبطن العاري ولا بطرف السوتيان الأخضر الذي يطل دون مبرر، بينما هي تثني خصر تنورتها ثنيات متتالية إلى أن يصل طول التنورة إلى منتصف الفخذ، أحتار في تصنيفها، فلو أنها اكتفت برفع التنورة حتى الركبة وتوقفت لتعاطفت معها، كنت سأفكّر أن لها أهلاً يمنعونها من ارتداء ما تريد، ويفرضون عليها أن تغطي تنورتها الركبة

وتتجاوزها للأسفل بكثير، وكنت سأتفهم رغبتها في أن تبدو جميلة وأنيقة، وأن تظهر ساقيها الرشيقتين، لكن أن تتجاوز الركبة إلى منتصف الفخذ، كان هذا ما يحيّرني، أردت أن أسميها وقاحة. لكن.. حين ترن الكلمة في دماغي، أحسها ثقيلة، وقاحة؟.. لكن لمَ تكون الساق ما تحت الركبة مكشوفة كلها باحترام ويكون لانكشاف الفخذ كل هذه الضجة والأحكام القاسية؟ كيف يكون الذراع كله حرّاً وتجحظ الأعين على الإبط العاري؟ كيف تطور بنا الأمر-**بعد العري الكامل**- إلى الخجل من العري؟ لم أعد أذكر -**أنا التي كنت قبل أن تكون الثياب**- متى نشأت مناطق العيب التي لم أجد تحديداً منطقياً لها بعد. لا أفعل سوى أن أحتار مما يمنح وجهي شكل الذهول ويؤكد ارتيابها الدائم بي -**رغم محاولاتي الجادة للّحاق بكل جملة تنطق بها ورسم تعابير متنوعة على وجهي**-. تخرِج دبابيس من حقيبتها وتثبت بها تنورتها بطولها الجديد، تترك السيجارة في فمها بينما تمسد بيديها على التنورة، تحرك بعض خصلات شعرها الأحمر، وتقرر - على شكل سؤال موجّه لي من بين أسنانها لم تنتظر إجابته - أن النمش الذي يحيط بأنفها يمنحها مظهراً شبقاً، يطلّ الرضى واضحاً من عينيها، فتقفز بحيوية عن المقعد، وترفع البلوزة عن السوتيان الأخضر كاملاً وتريني إياه وتطلب مني توقع سعره، وبين ارتباكي من حركاتها المرتاحة وتظاهري بفتح درجي كذريعة لإزاحة عيناي عنها وإصرارها على أن تريني الشبّاح الدانتيل واسم الماركة المشهورة المعلق على القاعدة اليسرى للسوتيان، وبطانة ال (كَب)، وإصراري -**بالحد الأقصى من الكلمات المتلاحقة والانفعالات المندهشة والمعجَبة والمؤيدة**- على عدم توقع أي سعر، واعتذاري منها بأنني لا أستطيع تقييم الأشياء الفخمة، وضحكتها العالية المنتصرة التي تفصح أخيراً عن الثمن البخس الذي اقتنصت به هذ القطعة من شارع الطلياني، وانذهالي للتغير الصاعق على مزاجها، وتفتيشها الصاخب عن كأس صغيرة تشاركني بشرب القهوة فيها، وشتائمها البذيئة -**لكن دون غضب**- على آخرين يتسببون في ضياع كاسات الشاي القذرة، ومحاولاتي الفاشلة لإيجاد نقطة غير ملطخة بأحمر الشفاه -**أي اسم كان أحمر الشفاه ذاك بنيّاً !**- اللزج الذي طبعته على كأسي مشاركة إياي قهوتي، بين كل هذه الأشياء، كنت أبدأ صباحي بتلك القهوة الرديئة وتلك الثرثرة البنيّة أو الصفراء كقيء ملفوحٍ بالبرد وبتلك البكاءات المؤجلة والمزدحمة في صدري، شاعرة بالرثاء لنفسي دون بيروت ولا درويش، ثم، وحين تصل قدرتي على احتمالها إلى الحضيض، تغادر الفتاة الطويلة أو البيضاء الغرفة، فأريح عضلات وجهي وحاجبيّ التي آلمتني لكثرة ما اضطررت للابتسام والضحك والاندهاش والتعجب، ألتقط أنفاسي وأنظف أذنيّ من صوتها الحادّ وطاولتي من عطرها وصباحي من صخبها -**بينما أتساءل عن السبب الذي يدعوني لمحاولة إقناع هذه الخرقاء بأنني إنسانة طبيعية، وعن السبب الذي يدعوني لطمأنتها إلى مشاركتي لها في التفاهة**- وأتذكر بامتعاض السهولة التي تكشف بها عن جسدها، ربما

أنها تعودت على ذلك، فهي تبدو فتاة رخيصة. و.. ربما أنها نشأت مثلي في بيت لا ذكور فيه سوى الأب الغائب دوماً، ثلاث عشرة فتاة وأم، بيت نساء، ليس غريباً فيه التجوّل بالحد الأدنى من الثياب، وليس محرجاً الحديث فيه عن العادة الشهرية وتبادل وصفات تخفيف الألم، وتوضع فيه أكياس السندريلا في الحمام الوحيد الذي يشاركنا إياه الضيوف، وتجد في ثلاجته أكياس العقيدة، ونتبادل فيه خدمات إزالة الشعر أثناء الحفلات الدورية المخصصة لذلك. أو ربما أنها مثلي نشأت في بيت لا نساء فيه، أنا وثلاثة عشر ولداً وأب، وأم نسيت أنوثتها منذ زمن بعيد، ربما أصابها الرعب الذي أصابني حين رأيت نقاط الدم تفشفش على قماشتي البيضاء الصغيرة ولم تجد من يخبرها إن كان هذا مرضاً أم أمراً عادياً، ربما توقعت أن الشعر الذي بدأ يغزوها هو من ملحقات العمر، ربما كان الكيس الورقي الذي يلفّ به صاحب الدكانة باكيت السندريلا بأناة متعمدة أمام كل الوقوف في الدكان والشارع يفضح خطوها المتعثر صوب البيت وتسللها حتى لا ينتش أحد الأولاد الكيس من يدها كما يفعلون دائماً، ربما كانت تثلج يديها وهي تغسل ملابسها الداخلية بنفسها وتعجز وهي تفتش وراء السرير وفي أسفل الخزانة عن مكان غير مفضوح بعد لنشرها حتى لا تضطر لوضعها في الحمام مع غسيل الأولاد، ربما كانت أنوثتها وصمة كبرت معها إلى أن اكتشفت أنها يمكن ألا تكون كذلك، بل أنها ربما تستطيع إشراعه هذا الجسد المدفون والمخجول منه في وجه السنين الطويلة التي مرت على وحدتها وكمكمتها عليه. وهكذا رمته في صباحي وجعلتني أقضي هذا الوقت في التساؤل عنها دون أن يكون لدي أي نية في سؤالها عن ذلك ولو كان في ذلك تحقيق انتصار لأحد احتمالاتي. ألملمها من دماغي وأكنسها خارجه، أنظر إلى الهاتف الذي يستلقي أمامي بإغراء، يوم دوام طويل وهاتف شاغر على مكتبي ينتظر أن أقرر مهاتفة أحد ما، لو أن هناك ما أفعله كي أشغل ساعاتي العشر القذرة لما ملأت صورة الهاتف حدقة عيني طوال الوقت. أرفع عيناي عن الهاتف، أنظر إلى الشاشة أمامي، ليس ثمة ما أفعله سوى أن ألعب، ألعب بملل، أحرك أوراق الشدّة المرسومة على الشاشة، تجذبني أغنية من المسجل القابع خلفي، أتظاهر بالنظر إلى الشاشة دون أن أرى أمامي.. أسعل.. أحاول التقاط منديل ورق من درجي.. أنحني.. تلتقط عيناي وجه الموظف الذي يقابلني.. يتظاهر أنه ينظر للشباك خلفي.. أحسه يراقبني طوال اليوم.. أعدّل جلستي لتغطّي الشاشة التي أمامي وجهه.. وأتجبصن كي لا أخطيء مرة أخرى فأراه..

أفتح درجي مادّة ذراعي على طولها.. أنظر للفتاة التي تمرق مثل سحلية مستعجلة من جانبي، لو أن لها أنفاً أصغر بقليل، لربما اعتقدت أنها ليست خبيثة. لكن بهذا الأنف وبهذه الطريقة في المشي، وبهذا النشاط، أحس وهي تمشي أنها ترفش في بطني.. عنيفة، يزعجني صوتها المرتفع أيضاً، فأكتفي بوجبة الثرثرة الصباحية وأتجنب فتح حديث معها.

يعود الهاتف ليحتل مساحة شبكية العين كاملة. أستعرض كل أسماء معارفي على اعتبار أنه ليس لدي أصدقاء.

إن هاتفاً شاغراً مستسلماً بدعةٍ أمامي ليفتح في نفسي أسئلة كثيرة.. أقل من وهج الجروح وأكثر من التسلية. يعيدني للتفكير في وحدتي وفي الإنسان كائن اجتماعي، وفي ابن خلدون الذي أنقض أنا نظريته كل يوم بعزلتي القاتلة. أعود لأحتار فيّ.. لمَ لا أستطيع أن أحب أحداً؟ لم يكن أحدٌ لي إلا عابراً. الجميع كانوا يختفون من ذاكرتي بمجرد غيابهم عن عيني.

-توقفْ عن إرسال طيفك ليقفز في خلفية ذاكرتي كأني نسيتك. تذكّرتكَ.. تذكّرتكَ لكن أشحت بقلبي عن عينيك اللتين ما كانتا لي. منحتَ الآخرين عينيك وكلمتي.. وتركتني أصرخ ملء نومك بالبرد وبكراهيتك. كراهيتك؟ لا.. لم يكن ممكناً أن أكرهك نائماً. لماذا؟ لأنه يا الله كم تبدو بائساً في نومك، ونحيلاً.. نحيلاً كنبيٍّ ملاحق. وشافّاً حتى لكأنك توشك أن تنكسر وتكون الأقرب ترشيحاً للتلاشي.

لكني تناسيتك لأنني... فتشت كثيراً عن أي سبب كمبرر للاتصال بك. وجدت واحداً. سأتصل لأقول لك : لم أدرِ منك هذا الصباح سوى حنيني عليك، كأنك سابقاً. اتركْ لي شمس كرْم اللوز، اتركْ احمرار عينيك، اتركْ خراقاتك الكثيرة، شهقتك ال– ما قبل البكاء، لا تغيّر كل ذلك فهو لي. لكنني كنت أطلب الرقم، تردُّ.. فتختفي أوامري بسرعة، كأني ما تعبت في إيجادها كل هذا الوقت، تفاجأ أنت بانتهاء ما أردت قوله لك، فأتأتيء علّني في الأثناء أجد شيئاً آخر أتحدث به إليك، أمدّ الجمل وتختصرها، ألهث في مدّ حبل الحديث وتقطعه.

أو.. تناسيتك لأنك في عتمتك الباردة لا هاتف لديك. لا صلة لي بك.

ما الحلّ إذن؟ تتصل أنت بي؟

هكذا إذن أيها الساهي؟ تجرحني عودتك الآن، في قلبي كثير مما تكسّر ولا شيء يجبره. أشياء أصغر من أن تُحكى، أصغر من أن تتخذ حيّزاً لكنها تحرق أيامي وعمري. عدتَ؟ وتصدق نفسك؟ لم أكن غير مهمَلةٍ في رجوعك الباهت. إلى متى ستظل تقتلني بالبدايات ثم تعود مشمئزاً؟ أو نحن هذا التكامل بعيدين؟ أأحبك بعيداً وتحبني غائبة؟ أين تفاصيلك؟ أين وجهك؟ أو أين كلماتك عني؟ منذ تفصيلة غافلَتني كففتَ عن الكثير لي.

أكتشف أنك لم تسمع كلمة واحدة مما قلت، أو أنني لم أقل كلمة واحدة مما ظننت أنني قلت. كنت تتصل لتعاتبني لأنني أنساني في مضيّي إليّ، لتعلن ذعرك من حماقاتي التي ابتدأتْ مبكراً دونما مبرر، ومن نسياني لأصدقائي الذين يقرأون " شتاء ريتا الطويل

" للشجيرات الصغيرة في الممرات القصيّة في التكنو، من نسياني صباحات الكافتيريا الهاربة من المحاضرات واللاجئة إلى الشمس المترددة والشاي بالنعنع. قلتَ أيضاً أنني لا أحمل معي من عام لآخر غير بشاعاتي وتشتّتي في هذا العمر.قلتَ لم يعد من غامض فيكِ ولا سريّ، لم يعد من ألق لكِ، ولا صمت يحمل معنى. ماذا بقى لي إذن ؟ أسألك.. فتجيب : فقط حرقة الرغبة المتكررة في المحاولة وعدمها.

أفكر.. صرنا مختلفين قليلاً الآن، أنت وأنا.. الرائحة تشبه النهاية.. الشكل أيضاً.

كأني أودّع أيامنا، ولا أدري ما يوجعني أكثر.. أنا أم أنت.

أحاول استعادة لحظاتنا الجميلة السابقة أو الفرِحة التي مضت، لا أستطيع، ليس بسهولة على الأقل، كأنما باب مغلقٌ على كل سنواتنا التي مرّت، فيما بعد، صرت أتجنب ذلك أيضاً، خوفاً من أن أكون أفعل ذلك لإثارة الحياة فيّ، أخاف أنني ألتفّ على روحي، أبثّ فيها قوى دفع ماضية.

فكرت بألم ليس كثير أو ليس (ليس كثير)، بل بألم على شكل لسعات، ليس متصلاً، أنني أفتعل الاحتراقات. ربما لو أراك أحاول امتصاص تعبك دون حنان. احتمال.. ربما، قد يكون، لكنني لن أكون صريحة معك، لأنني لأكون صريحة يجب أن أعاتب وأمتلك وأؤمن مرة أخرى، وإنني أكثر تعباً من البكاء أو أكثر شكّاً بالعتاب والامتلاك والإيمان بأي شيء.

كنّا محاولة.. نرى أحياناً خيبتنا حين لا نؤمن، ونرى أحياناً أن هذا العمر يمكن أن يحُتمل. لكن.. حينما لا نكون معاً.. لا نرى قط، لا يكون ثمة سوى أحقادنا الصغيرة.

مراوحاً بين إله وشيطان، ما زلت لا أدري ماذا أريدك ؟ ماذا لديّ وماذا ينقصني ؟ أحياناً أجعلك تعبر بي عتبات الخريف، مطاردة بإجفالي مما سيأتي، أجعلك تدوم. وأحايين أخرى أجعلك تفارقني قبل أن أدرك. أجعلك مؤقتاً كما شمس آخر الصيف.

أخرج من غيابي. أفهم الآن بتفاجؤ، أفهم دون كثير اكتراث، دون رجفة في اليد، بلا دموع، وبلا وخزة القلب الحادّة، أفهم أنه أيلول.. أنا أيلول. لماذا انتظرتُ كل هذا العمر كي أفهم أنها ليست لعبتي معك، ليس لهوي ولهوك مقابل الحياة، أفهم الآن كم كنتُ خارجها منذ زمن.. لمَ لم أفهم.. أنا أيلول.

لا بريق في عينيّ، لا حرارة في صوتي، لا صبر على شيء لديّ. متروكة كطفلة وسطى، نساها الجميع وراحوا يفرحون بولد جديد. محايدة كما لصوت آلة الردّ الهاتفية. يائسة من وجود ما يستحق أي شيء، وغاضبة مني حدّ الارتجاف لأني سمحت لحبيب مختلق

بالتطاول عليّ إلى درجة هزيمتي – كنت أجعل كل الأسماء التي أعرفها تمر أمام عيني.. وحرصاً على ألا أُسقط أحداً من ذاكرتي أفتح دفتر الهاتف الأسود الخاص بي.. حسناً.. سيغضب دفتري من هذا الانتقاص لمهمّاته.. إنه ليس دفتر هاتف فقط، إن به كثيراً من وجع القلب، ومن ذكريات الأيام السعيدة –**مثلما في دعاية الحليب، لكن بانطفاء الماضي ودون بهجة**– و قوائم مشتريات تبدأ بفوطي الصحية وتمر على احتياجاتي من الدكان الذي تحت بيتي.. ولا تنتهي بجمل مختصرة لأفكار نصوص سأكتبها يوما ما. أستعرض الأسماء المكتوبة فيه، أنظر بحقد لبعض الأسماء، ليس أني لا أريد مهاتفتهم، بل لا أريد لنفسي يوماً إن عادت علاقاتي معهم أن أحادثهم. حسناً.. إنني لا أكره أحداً كما قلت، إنهم محايدون، لكن شكل الخط الذي كتبت به الاسم يستفزني جداً، شكل الخط على ورقة الهاتف الصفراء. أحمل الحبر الأبيض وأشطب كثيراً من الأسماء العابرة أو الداقرة.

إن لخطٍ أو اسم على ورقة.. مشاعر ترتبط به في نفسي أكثر بكثير من مشاعري تجاه الشخص حامل الاسم. إن خطي يثير نزقي أحياناً وألمي أو قرفي أحياناً أخرى. يبدو أحياناً فرِحاً جداً لدرجة لا أستطيع تخيّل أنني كنت فرحة بهذا القدر لأي سبب كان، يستفزّني فرحه، وأحياناً يبدو حذراً، كأنه يخبرني عن الهالة التي رسمتها لهذا الاسم قبل أن أعرف حقيقته أو قبل أن أكتشف غبائي. خطّي.. هذا الذي كان خيبة أبي الأولى بي، وخطّي.. هذا الذي يتغير كلما تغيّرتُ. كلما تعرفتُ على أحد قلّدتُ خطه، كلما أعجبني شكل خطٍ ما صار خطي. أنا لا خط لي.. أو أنا كل الخطوط خطي. أحياناً.. أحسّه شاهداً أريد تغييبه على حماقات سالفة.

أغلق الدفتر.. تمنحني فخامته –**فخامته الغابرة أعني**– إحساساً بالراحة،كان فيما مضى إحساساً بالزهو.. ليس زهواً تماماً.. شيء قريب.

هناك أسماء أستغرب متى كتبتها، لا شيء مطلقاً يرتبط بها. ومع الوقت تبدأ هذه الأسماء بتشكيل جبهة للسخرية مني، ما أن أفتح الدفتر حتى يطلّ أحدها شاهراً بوجهي ذاكرة تالفة.

خطر لي أن أهاتف فتاة كانت تعتبرني صديقتها الوحيدة، حاولت أن أشجّع نفسي على فعل ذلك يقودني إحساسي بالذنب لأنها تعتبرني كذلك بينما لا تعني هي لي شيئاً. أحاول أن لا أتذكر شحوبها ونغمة صوتها المضجرة وطريقتها في الحديث، أغمض قلبي عن الإحساس بالذبول حتى أتجاوز كآبتي وأطلب الرقم، لكن أتذكر في اللحظة الأخيرة أننا في كل مرة نلتقي نكرّر نفس السيناريو، هي تكرر نفس الأسئلة بنفس النبرة التي توحي أن صاحبها إما خارج من القبر أو ذاهب إليه –**لم أنتبه قبلاً إلى هذا التشابه في الحالة.. الخارج والداخل**–، وأنا أجيب نفس الأجوبة بذلك الصوت الخالي من الحياة، نضحك بالملل

ذاته، ونقترح الخروج للأماكن ذاتها للتخلص من صمتنا، وهناك نجلس محاولتين أن نسرق شيئاً من حياة الذين يجلسون من حولنا وحين نفطن لأنفسنا نتأفف بتلك الحرارة الكفيلة بإحراق بيدر قمح. ألغي إحساسي بالذنب، ما علاقتي إن كانت تعتبرني أي شيء؟ كنت أحتاج أغسل روحي من اليوميّ الغير مفكّر به، أحتاج الانسحاب من تفاهة الأيام، أحتاج أن أتسبّع من الضجر كما لو من كلبٍ نجس.

أفكر في الخروج من مكتبي إلى المطبخ لصنع قهوة تشبه منقوع الصدأ، أتذكر الوجوه التي قد أراها في طريقي وكمية الماء التي سأضطر لشربها لإزالة طعم القهوة من فمي.. أعدل عن الفكرة.

أنظر أمامي، يمر أحدهم، ينظر في عينيّ منتظراً أن ألقي عليه تحية العيد الذي مر قبل يومين أو أن أشجعه بابتسامة أو نظرة رضى على إلقائها.. لا أستطيع أن لا أنظر بقرف.. يبتعد.. وأستغرب بعد يومين إذا كنت منشرحة صباحاً مرور هذا ال-أحدهم دون إلقاء تحية الصباح بحماس عليّ.. فألقيها أنا مع سؤال عن ولده أو شغله، فينظر مندهشاً.

أفكر في مهاتفة فتاة التقيتها صدفة في تواليت الطابق الذي أعمل به، وبعدها صارت تدعوني لتدخين سيجارة في الحمام كذريعة للثرثرة،كان ذلك في البداية حين كان ما يزال لديها ما لم أعرفه بعد عن تفاصيل حياتها. فيما بعد، حين صار يرتسم ذلك الزوغان في عينيها، زوغان القصة المروية مرات عديدة، الزوغان المحتال كي لا يشاهد نظرتي الصريحة رغماً عني، النظرة التي تقول إنني أعرف، لقد سمعت هذا من قبل، زوغانها المحاول عدم رؤية مللي الخجول يحتار بين الظهور لطول القصص المعاد سردها مرة أخرى والمجاملة، ولم يعد لديها ما تقوله لي، صارت تنتظر أن أبدأ أنا بدوري بإخبارها بما أفكر به وبما فعلته البارحة، أين ذهبت، ماذا حلمت، ماذا أكلت، ماذا أحسست، كنت أحياناً أتذكر شيئاً ما، ثم أتراجع عن قوله، أوفّره لصباح آخر أكثر جدباً بالأحاديث من هذا الصباح. فيما بعد، لم أستطع سوى التهرب من سيجارتها اليومية والاكتفاء بمهاتفتها بين الوقت والآخر لا لأني أشتاق لها أو لأن لدي ما أخبرها به، بل لأني لا أريد أن تتطور حالة البرود هذه إلى قطيعة تستجر بالضرورة مصالحة لاحقة وعودة دافئة للعلاقات، وهذا ما لم أكن أحتمله. كانت نحيفة كأنها عجوز ومحدبة وثقيلة. يا الله كم تكون الفتيات ثقيلات حين يصيبهن الملل. عادة، حين يكون هناك رجل في الأنحاء، خاصة إذا كان أعزباً أو لعوباً فإنن ينقلبن مرحات، مبتسمات ولمعة في عيونهن ولا تعرف كيف لنفس الملابس وتسريحة الشعر أن تبدو كئيبة في لحظة ومنتعشة في اللحظة التي تليها. لا لن أفعل، لا أستطيع احتمال نظراتها الخاوية. لا أكرهها، إنه نوع من الانتقاص أن أخرج من تعادلي البارد تجاه الآخرين. لا أحد يستحق كراهيتي.. لا أحد يستحق الخروج عن الحياد.. إن الحياد حتى كثير على حياة كحياتي وأشخاص كهؤلاء. كنت أكره الأشخاص فقط حين يرافقون حدثاً أكرهه، يكفي أن

يتواجد أحد حين أتضايق من أمر ما لأصبح لا أطيق رؤيته، وذلك ينتهي فجأة، فجأة أصفح عن وجودهم وأعود محايدة تجاههم فأفاجأ بكراهيتهم.

أتطلع إلى الشاشة أمامي.. ينبض الكيرزر أمامي، يوتّرني هذا النبض فأحاول أن لا أراه، أحدّق في سواد الشاشة، ينتقل تركيزي من سواد الشاشة إلى انعكاسي على الفلتر المعلّق عليها، الصقيل أكثر من مرآة، في سواده أتفحص أولاً شكل شعري.. أرتبه بيديّ ثم ألتفت حولي بحذر لأرى أن لاحظني أحد وأنا أهتم بشكلي، فإن لحظت أحداً رمقته شزراً وعدت للتظاهر بالانشغال، وإن لم ألحظ.. عدت لتفحص تقاسيم وجهي وشكل ملابسي التي تظهر ياقتها وجزء من الصدر، أحدّق في المساحة المكشوفة بدءاً بالرقبة وانتهاءاً بالزر الأول من القميص، محاولة معرفة ما أبطنه داخلي. كانت هذه المساحة تعكس نفسيتي بدقة شديدة، فحين أكون في بدايات الحبّ –**أي حين لا يكون الرجل قد عاملني كملكية خاصة به بعد**– تكون تلك المساحة بما يكفي لاشتعال داخلي وداخله، فنظن أنه الحب، ونعيش تلك البداية كما ينبغي لعاشقين. وحين أكون وحيدة، موجوعة من قسوة الأشياء، نازفة اشتياقي طوال ليلي الموحش، معلّقة مقولة حمزاتوف على باب غرفتي وباب قلبي "رأيت نمراً في الغابة، فقلت له يا أخي"، كانت تلك المساحة تتسع بغضب على كل شيء، تتسع كي لا أختنق بحزني ووحدتي، تتسع لتخلّف الزر الأول وراءها، وتغازل الزر الثاني غير عابئة بالتصنيفات القاسية، كان الغضب يشهر جسدي أمام العالم، كنت أحس باستحقاقي للحياة، وأنني أريد كثيراً أن أشعر أنني في الثالثة والعشرين، شابّة مشدودة وفتية، وكان عدد الأزرار التي تنفتح من قميصي يشعرني بلا مبالاتي بهؤلاء الناس. الأزرار المفتوحة كانت تقودني إلى الأسئلة التي لا نهاية لها..

أين نُذهب الفرق بين ما نفهمه وما نحتمله؟ أين ندفن دموعنا لما نفهمه ولا نستطيع تخيّله؟ كيف نمنع أنفسنا من الرثاء لنا؟ كيف ينسجم ما هو يومي مع ما هو إيماننا؟ أو شكّنا؟ كلاهما واحد.

يمكن لنا أحياناً أن نتخيل جبننا حذراً أو ذكاء، وفيما بعد، يكون المشرق في أعيننا هو الكاذب في روحنا.. نعرف ذلك. أي أهمية لجمال الصورة، إن كنت قد اقتصرت عمرك على ما اضطررت له؟ أن تُحاذر – بكلّ طاقات الحذر في ارثنا وإنسانيتنا وجنسنا وذاتنا –، أن نُحاذر أن نغامر. وكيف نصل إلى لا إمكانية المغامرة؟ كيف تخيّلتُ أنني أغامر حين كنت أدرك في العمق أنني لم أصل بعد حدود الخطر؟ كم يمكن لي أن ألتفّ عليّ وأقنع غروري كإنسان؟

لكن.. حين أكون غارقة في شكّي تجاه الحبّ، حين تكون الوحدة أقل بشاعة من

الالتباس، أكون ميتة، وتكون ملابسي كفناً ينغلق ليطبق على رقبتي ولا يفتح لها زراً، أكون مثل راهبة بقبّة عالية، واحتشام مزمن.

أحدّق طويلاً في وجهي المنعكس عن الشاشة، أرسم تعبير حزن مثقف على وجهي، ثم تعبير حزن ساذج. أنظر بطرف عيني متخذة مظهراً شرساً.. حسناً.. إنني هكذا أبدو امرأة غامضة أو مثيرة، أبتسم في الشاشة، يعجبني شكل ابتسامتي، تتسع قليلاً فتظهر أسناني، ينقلب شكلي عندها كليّا إلى الغباء، أغضب وأقرر ألا أبتسم مطلقاً. يجب أن أحدد شكل الغموض وأتبعه.

يرن الهاتف.. أخيراً يحادثني أحدٌ لم أختره أنا. أرفع السماعة فينقطع الخط. حسناً.. إنها متعة أن أخمن من الذي اتصل، ثم تنقلب متعتي إلى خشية من أن يكون أحد الذين لا أطيق التفكير في مجاملتهم، يرن الهاتف مرة أخرى، أسارع لالتقاطه فينزاح وجهي عن الشاشة وتلامس يدي يد الفأر الجالس أمامي والذي سارع لالتقاطها، ليس أني شاهدت وجهه الكريه، بل لامست يده أيضاً. يرد هو.. ثم يعيد لي السماعة بابتسامة تشبه القيء..

لكِ..

آخذ السماعة.. وأتمترس وراء شاشتي كي لا أرى وجهه، يرتسم وجهي أمامي في الشاشة غير مبتسم ولا غامض. أتمتم بأشياء لا أقصدها، اضطر إليها رداً على الأسئلة المتتالية بسرعة توحي بعدم أهمية ردي، ثم يبدأ مسلسل الكذب.

كلما حادثني أحد اضطررت إلى الكذب. أكذب دون سبب، فقط كي لا أزعج أحداً بي. أكذب من أجل الآخرين، كي لا أحرجهم، أكذب وأحدد لهم مواعيد أعرف أنني لن أذهب إليها. كي لا يحسّوا أنهم أكثر اهتماماً بي مما أنا بهم، وأكذب وأقول أنني سأفعل ما يريدون كي لا أخذلهم. لم أكذب ولو مرة واحدة من أجلي، دوماً كي لا يكرهوا أنفسهم أمامي. أتضايق من كذباتي الصغيرة وأبررها بنفس الوقت. أفكر فيّ ككاذبة.. أكره ذلك. أفكرّ بنصّي.. ثم أفكر أن لكذب المرأة معنى يختلف عن كذب الرجل. أفتش عن اسم ما سأكتبه قبل البدء به، وأحسد الرفيق " أبو زهرة " الذي يتعثر بالأسماء الرائعة لأشياء لم يبدأ بكتابتها بعد. لا يهم.

المرأة قد تكذب قليلاً.. باحترام، فقط لتخرج هذه الأرض عن مللها. والمرأة لا يحرّكها سوى الملتبس في حقيقته، سوى المموّه.. غير المحدّد. المرأة ملولة دوماً، لذا يحركها ولعها باللعِب. المرأة متوحدة.. ليس لها إلاها. والمرأة مندغمة في الأحاديث الطويلة الهامسة والمتذبذبة في درجة الصوت. والمرأة بالضرورة شبقة، لكن تُخفي شبقها كي تظهره أكثر. المرأة دونما تخطيط مسبق، تُنبت من إهمال مظهرها فتنة التلقائي لكن أيضاً دونما سذاجة. المرأة تلقائية وقتما تريد وحذرة إرثية وقتما تريد، والمرأة تستخدم التاريخ البشري كي تضحك أكثر.. عالياً.. فالمرأة تضحك عالياً. والمرأة نزقة.. ودونما إنذار. دون أن تملك سؤالك لماذا..

والمرأة.. دائماً كأنما هي أول مرّة. المرأة لا ترتبك. المرأة تسحب فتيل الارتباك وتحيل الهواء إلى هواءها.

المرأة تمتلك العالم بيديها، تفعل به ما تشاء.. تحيله رماداً أو غيمة. والمرأة جديدة دماً. لا تعرف لون عينيها ولا لون جسدها، قادمة من إرث الأنثى. من إرث الأنثى التي لا يرى وجهها الشمس، الملتفّة بالسواد الغامض خارجة. والمرأة أكثر من يلعب عبر التاريخ، تلتفع عباءة رجولتهم وتخرج إليهم، تُرضي أوصياء التاريخ بحشمتها. هم لا يعرفون أنها عارية تماماً تحت هذه العباءة.. عارية حتى عن دمها.

المرأة أكثر من يضحك عبثاً ومجوناً. و لديها القليل الكافي من كل شيء. قليل من البلادة كي لا تهتز شعرة منها مهما جلّ الحدث، يأتيها الحدث هراً أليفاً يتمسح بقدميها. وقليل من الوقاحة كي تطلق ضحكة مجلجلة وهي تغمز لشيء ما يثير فزع الرجل وشهيته. قليل من الحنان كي لا تكون أمّاً شهيدة وكي يعطش الرجل لها، يستمد منها قوّته وأيامه. قليل من الصبر كي تبقى لها مهابة المرأة. وهي لا تصبر كثيراً، فكثرة الصبر تهدر ماء القلب.

لديها قليل من الرغبة كي " تشعل الحرائق في كل مكان ". الرغبة في العبث بكل شيء، داخلة حدود الشيء. والرغبة في الجسد تجعلها امرأة تصل إلى ما تريد، والمرأة لديها كثير من الوصول إلى ما تريد.

وحيدة.. كنت أفتش عن كلمة تقول وحدتي، لكن كل الكلمات أقل منها، أفتش.. أفتش. وحدهُ الفقر المدقع يشبهها. كانت وحدتي مدقعة. كلمة مدقعة تليق بوحدتي وتخرجني منها. أنبش جذرها الثلاثي بأظافر فضولي، فتسحرني السماوات الملونة التي تنفتح أمامي.. عقد.. قعد.. دقع، وحتى دعق يمكنني أن أجد استخداماً أنيقاً ما لها.

أتسلى عن وحدتي بالكلمات، الكلمات التي تسحرني. أحضر أحرفاً متنافرة تكره بعضها البعض ثم ألمّها وأرى كيف تمنح رغم تنافرها معنى جميلاً. أجرّد كلماتي من قلائدها وزينتها فترتد لبدائيتها، هذه اللعبة تسليني كثيراً.. تدهشني.. تمنحني فرحاً حقيقياً. إلا أن الأمر السيء بخصوصها أنها تقودني دوماً للإحساس بالصَغار والوضاعة. أمام قداسة التراتيب.. مَن أولاً.. ثم مَن ثانياً.. من ثالثاً، لا يسعني إلا أن أتساءل بحقد وخجل.. لماذا للّغة كل هذه الأناقة، بينما نحن هكذا؟ لماذا الكلمات تتدفق من جذر ثلاثي.. متباينة.. متألقة.. ونحن ليس لنا إلا فظاظة التشابه؟ لماذا جذرنا اثنين مهما كانا وكيفما كانا، وجميعنا –**نتاج هذا الجذر الثنائي**– نتطابق في كل شيء إلا ما ندر.

أَنظرُ للكلمة. فقر وفرق وقرف ورفق.. أي سحر! تذهلني الحروف الفظة حين تلتقي فتخلق نعومة لا يعادلها شيء.. ضاد وقاف.. هل ثمة ما هو أدفش؟ فتأتي (ضيْق) كامرأة ناعمة بشعر قصير وتنورة أقصر. الباء ناعمة.. والضاد أَنفة.. تطلع (بضّ).. رطبة مثل فرّان متعرق بوجه أحمر. ليس معنى الكلمة هو ما يجعلني أَحبها أو أكرهها.. المعنى لا أهمية له.

أما نحن.. هل نحن من خلق هذه اللغة؟ أغفرُ قليلاً لفظاظتنا وفرط النقص في حساسيتنا. أي سحر صنعناه في حروفنا ولا نملكه.. هل هذا ما يسمى بالاحتراف؟ نفس الكلمة ونفس التشكيل، فتسيل عوالم تتضارب تبعاً للموقع الذي هي فيه.

لم أكن لأشرك أحد في لعبتي هذه.. الأغلب أنهم سيظنونها مملة، لذا.. لم يكن بي حاجة للانتقاص من قيمتها لديّ بسماع رأي الآخرين بها. كانت لعبتي وحدي. كانت الأحرف أصدقائي الذين مهما لهوت معهم أو بهم لا يملّوني أبداً. لكني، أنا من كان يملّ العبث بهذه الكائنات الصغيرة، فكنت عندئذ، أعيدها من حيث وجدتها أو من حيث التقطتني، وأعود لأغرق ثانية في وحدتي المدقعة.

وحدي.. دونما رفقة.. ودونما رقة أيضاً.

آه يا عامي الحزين، تمضي بارداً.. لتعود بارداً. لم يكن كثير من الحديث بيننا، كأنا صمتنا. أهلاً أيها العمر اليائس.

أهلاً أيتها الوحدة الأمنية، لم تعودي كما كنتِ. صرتِ خواءاً فقط. كنتِ الاشتعالات والافتقاد والاحتراقات، كنتِ احترافي قتلي. الآن ما عدتِ سوى احتيالي على خوائي.

ها أنا أقطع حبلي السريّ مع هذا العالم. لم يبقَ لي على أبواب هذه السنة الجديدة غير اجترار مفردات مكررة، لا مشاعر لديّ على الإطلاق.

إلامَ تسعى أيها " المركب السكران "؟ عمَ تبحث دون أن تجد؟ أعرف أنك تستمتع بالألم ولا آلام هنا. هل أخلقها لك؟ لا أعرف لك متعاً أخرى.. تحيّرني.

كانت وحدتك متعة فقدت معناها وليس الزمن زمن انتظار، إنه زمن المغادرة على أي حال، الجميع يغادرونك، وأنت تغادرك، لا يبقى غير هيكلك الكئيب، ليس ثمة ماضٍ تجترّه فأنت بلا ذاكرة، وليس لك حلم محرّم فأنت بلا خيال. ليست لك اللغة ولا اللعنة.

أيها العزيز الذي أشفق عليه.. هل انتقلت سهواً من بحر إلى بحر دون أن تعرف؟.. دون أن تريد؟ كأنما كنت دائخاً أو نائماً.. لم تتوقف لتريد.

كم تحزنني أيها " المركب السكران ".. كأني أحسك لن تواصل، ستتوقف وتغزوك الطحالب البائسة، ستأكل أخشابك. كنت تدري ذلك منذ زمن.. تدريه ولا تفعل شيئاً ليبقى لك مجد المرور من هذه الأنهار. كم أنك لا تترك أثراً. ستغيب.. لن يكون غيابك ذا معنى، سيكون غياباً فاضحاً.

كنت جميلاً يوماً ما.. وجريئاً. لم يكن جمالك أبعد من لمحة ولا جرأتك أكبر من كذبة.

كل ما كنتَه،كان اللحظة، اللحظة المنقوضة حين ميلادها. وعبثاً كذبك، لمْ تحاول، أنت لا تحاول أبداً.

تستعيد رغباتك القديمة الآن. امنحوني انزواءاً صغيراً أُنسى فيه، وتستمر الأنهر بالجريان.. ولا تفعل حتى الرؤية.. يا الله كم أنك لا ترى.

إنها ليست تجربةً.. حياتك. لم تكن شيئاً. وها أنت تضمحلّ حتى تتلاشى. لم تُفرح أحداً وها أنت تنتهي في مستنقع بائس ولا بحر أزرق كبير لديك.

وها أنا.. لا أحمل من شبابي أكثر مما تحمله مكنسة الجنة.

"يا عمري ال– متل فراشة حول القناديل"..

البشر هنا لهم طعم الغبار..

وهل أنني أكثر من غبار ؟

أمرٌّ.. لا أُثير حولي سوى الضيق.

ومرور مرير..

طعم الرداءة والملل المخبأ في أماكن العمل.

قلبي رخامٌ بارد.. ومصمت، يملأ نفسه بنفسه. تفوح مني رائحة الرطوبة كما لو كنت في المخزن السفليّ لهذا اللاتجانس المسمّى حياة، أو كما لو كنت منسية على سدّة.. أتعفن وأحاول ألا أعرف ذلك.

أضيّع ملامحك ثانية.. أرهقتَني حتى اتفقتُ معي عليها.. وها هي الآن تضيع..

أضيّع ملامحك ثانية.. تبتعد.. أبتعد..

منذ زمان حزين لم نلتقِ. أطلتُ عليك الغياب.. أعرف. وأنا التي خرجت للمدينة القبيحة أفتش عن قتل أيامي بيديّ. أطلت غيابي عن بيتك وجسدك، عن صوتك يأخذني لكَرْم اللوز والبرد، والمطر والركض، وكأس العرق بنخبه الصاعق لأول وهلة. أطلتُ عليك وأنا المغادِرة. وصلت روحي للحلق.

إذن هاك نخباً.

نخبٌ للالتصاق المرّ.

للتوأمة تقتل كلينا.

نخبٌ للاثنين.. يبقيان اثنين.

للاثنين في واحد وللواحد في اثنين.

لكَ.. شقّة الروح.. وفلقتها.

لك جلال مساحة الالتقاء، ولي مساحة الاختلاف.. تدمي حوافها يديّ، فألعق دمي لأواصل صلاتي للتشظّي كما خشوعي للانصهار.

أرسم. أمسك قلماً مبرياً بحدّة، وورقة تحمل اسم الشركة. أقلبها كي لا ينغص الاسم عليّ وأبدأ الرسم على ظهر الورقة. أسمي ورقتي (امرأة.. وترسم).. ثم..

أفرّغ كل الزوايا من وحيديها.

ولا أسمح بنهايات الخطوط إذا كانت من تعبٍ..

ولا أترك طرفاً لا أمسكه بيديّ..

لا أُبقي خطاً يقترب من أن يكون ظلاًّ. كل الظلال خطوط لديّ.. وأساسية.

أمنح بحقدٍ كل ما ليس أساسياً.. حجماً أكثر من أساسي.

وأمدّ خطوطاً لاستدراج الجميلات من النساء أو الجريئات دونما جمال.

أصِل انتشائي من حدّة الخط الذي يقصّ الورقة.

ولو أنني أستطيع جعل إبرة القلم من نارٍ.. لكنت لم أتخذ ورقاً للرسم سوى جسدي..

وإذا كان لي أن أُحيل شيئاً أو أحداً ما حطاماً.. فإنني أول من يُحال.

حسنٌ.. إنها المواظبة الوحيدة التي يمكن لي أن أحترفها.

مؤخراً.. كثيراً ما أكتشف أن خطوطي كلها تميل للتكوّر إلى أصلي الجنيني.

وأن ما من خط خارجي لديّ إلا ويشبه الرحم التي خلقتني.. ولديّ حبال سريّة كثيرة..

الخطُّ.. خط..

أكرهني حين تبدأ خراقتي فأُدمي بالسواد كل رشاقاتي السابقة.

لكن.. لمَ لا أسمح لخطوطي أن تنكشف على لونٍ ما؟..

أخشى أن يُفسقها اللون.. أخاف عليها.. أُحافظ على عفّتها.

أكره حشرجة القلم. وحين يشكّل نتوءاً.. أشبّهه بتجشؤات رجل كريه.

أي خط جميل هو مشروع جسد امرأة.. دون أن تدريه..

ترسمه جميلاً.. فيقول لك أنه من تضاريسها.

أنظر للورقة.. أرى تقاطعاً صغيراً.. بين كل المساحات والخطوط.. من رماه هنا.. يحزنني..

هل هذا التقاطع الصغير.. منسياً بين كلّ المساحات البيضاء الكبيرة هو من يذكّر الناسين بنجاتهم.. هو من يفعل المعنى؟..

أي معنى؟

هل هذا العمر شيءٌ ليستحق ما يليق به؟

ما الذي يليق به؟ الفرح.. المتعة.. اللذة..

كلها أخفضت راياتها.. وكان الألم مرشحاً ليرفعها.. فلم يملأ حتى مكانه..

والوحدة لم تعد تملأ شيئاً.. تبسط كل شيء حد السذاجة.. ليس أي شيء قادر على انتزاع شيء من روحي غير سكونها..

سميّتُني ماءاً ساكناً.. أو موت.

رأيتكِ.. رأيتكِ على الورقة الصفراء المبقّعة.

رأيت فكرتكِ.. سطركِ.

لمست المعنى.. مكثفاً قليلاً. في الداخل.. داخلي.. يعلق به ألف كلمة. كلمة واحدة تفجّر في دماغك صوراً وصوراً وتخيّلات. تعيد إليكِ الأماكن.. الغرف.. الطاولات الشاسعة الاستدارة والألوان.. و(المرأة تلجأ للون كي يطمئِنها) وأنتِ الآن المرأة.. ولا طمأنينة تحتاجينها، لا لون.

يغادركِ الخوف لحظياً أو الآن دون تحديد آنه.

تلتقطين رشاقة عمرك الأقل، تستعيدين رشاقات غابرة.

كيف تراهن المرأة على الفروق التي كان يمكن ألا تُلاحظ؟ كيف لها من القوة أن تجازف بالأمل في الانتباه؟ كيف لا تخشى الخيبة؟.. المرأة والخيبة.

المرأة عكس الخيبة.

كل جملة تثير روحي لأكتب أكثر.. لأوضحها أكثر.

ثم أخشى على كتابتي الجميلة من خراقتي الجديدة.

(ما هو العمر إذن)

العمر هو الفتاة في العشرين ترى شيبة في شعرها، فتنتزعها وهي تطلق ضحكتها الخفيفة. هو المرأة المنزلقة نحو الثلاثين، تنظر إلى الشيبة بوجوم وكدر، دونما خفّة.

(ما هو العمر إذن)

ليكن هذا اليوم نخباً للالتفات، نخب الانتباه للعمر الذي كان. كنتُ في الثانية والعشرين وكنتَ في الرابعة والعشرين.. اليوم أنا في الخامسة والعشرين.. وأنت..

أي زحلقةٍ نحو الثلاثين. وحين ترتكب الثلاثين.. أدع لي تأنيب الضمير لشعور خفيف وسلسٍ بالغبطة لأنني ما زلت – مذعورة – دونها ببضعة أشياء.

منذ سنتين أو ثلاث، بدأ كانون الأول يوحي لي باحتفالية قد لا أتساوق بالتفاصيل معها، لكني أحسّها. لا تراودني هذه الاحتفالية الآن.

انتهى حزيران، قبله كان نيسان قد مرّ بكل ثقله على روحي، وانتهى كأنه لم يفعل. أيار عابر لا يخدش سطح عيني وقلبي منغلق على نفسه، حتى مني. محايد حياداً رمادياً لست أفهمه.

(ما هو العمر إذن)

أتذكر ميلاداً قديما كنته وحدي إلا من أغنية مجروحة. كان الميلاد الأكثر حزناً والأكثر فرحاً. أوقفت بعض الناس في الشارع لأقول لهم أنه.. أنني لم يعد من حقي سوى السنة التي بدأت، سقطت حقوقيتي الاثنين والعشرينية.. الآن عمري ثلاثة وعشرون، غداً ثلاثة وعشرون ويوم.. بدأتُ في الرابعة والعشرين.. كثير!

الرابعة والعشرين تماماً..

تعبي اليومي.. نسياني وإهمالي، دموع مالحة سريعة الالتجاء إليك. ولأن لا زاوية لي أسكب دموعي فيها، أخبيء لك ضحكاتي فقط، أنت زاويتي.

"زهرة من بكاء تتجمد فوق أشجار عينيك " في لحظات شجارنا التي صارت كثيرة.. صار لنا حزنان وكبرياءان.. كان حزنٌ وكبرياء..

وبيت غير أليف أسكنه، لا مكان فيه لعاشقة أن تخبيء رعشات خطوطك، أوراقك تظلّ محمولة في القلب وحقيبتي. الجارة تضحك، المسجّل صاخب، وموسيقى الرجوع إلى الخلف عالية. هدير ثقيل، مرّ وانتهى، أتنصت لوقع أقدام على الدرج، غارقة في انتظار لا معنى له. لو أنك تأتي. أفتش عن أخبار مدهشة، قصص مضحكة، أشياء ترفع حاجبيك للأعلى أو تستثير بدايات انفعال ما أراقبه وهو يتغير أثناء قصّي. أفتش عما أخبرك به.. كي لا تملّ.

(ما هو الحب إذن)

هل هو الدهشة لما لا يدهِش؟ إنه لا شيء.. إنه الحب أكذوبة أيامنا لنستمتع بالعمر يمرّ علينا، هو الرغبة بالإفصاح عن الذات زمناً، وهو اليأس من أي شيء زمناً آخر. إنه أن لا يعني لك حديثك أو سكوتك شيئاً.. فتصمت. الحب هو الأكذوبة المكشوفة أولاً بأول، هو رغبتك بالاختلاف وهو مللك الذي تعيش نقيضه وأنت تعرفه.. مالٌّ.. يائسٌ وضجِر.

ماذا بإمكان الحب أن يصنع لك؟ إنه الترفيع التلقائي ثم انعدام الدهشة. هكذا.. نلتقي.. نحب بسلاسة دون دهشة. إنه الرغبة بالمجهول، هو تهويل الحواس للقلب، هو مبالغة الغياب، هو الاختلاط بين الدهشة والجديد، وعرض الذات، ولمعة انبهار في عيني ال – أمامك. وربما أنه بعد ذلك تعايش.. انتظار مشترك في عصر لا مشترك فيه، الرغبة في إتمام أمر ما. وفيما بعد هو الضجر غير الجميل وهو المرارة بمعرفة الحقيقة أو التعامي عنها أو احتمال نزف دائم لفقدان الأشياء وهجها.

إذن إليك إياي.. إليك أصمت، ضيّعتني منك وقبلاً مني.

ُمراوحة بين تشوه قصيّ وتشوه آخر قصيّ، بين الخجل من الطفولة وانعدام البراءة والسذاجة.. يبدأ عصر قسوتي. عصر الإخفاءات والملل المتوحد. أدور.. أدور حول الكلمات. أبحث عن الحقيقي إن كان موجوداً.

لكني الآن أعرف.. ليس ثمة ما هو حقيقي.

لم تكن دموعي كذلك.. ولا غضبك، لم يكن نحيبي الليلي.. ولا إهمالك.

ليس الشيء ونقيضه حقيقي، وليس الصمت هو الحقيقي الأخير الذي ظننته، وليس ألمك الحقيقي الأخير لك.

كلها تحايد حتى تصل اللون الرمادي. تحامَلْ على نفسك كي يتخذ وجهك تعبيراً.. التقاسيم ترفض.. تتخذ شكل الموت واللاشيء. إن اتخذ وجهي تعبيراً ما.. فلكي لا أنثر سوادي عليك.

مرقَ أيلول دون أن أسمع طقطقة للأوراق الحمراء تحت قدميّ. احتلت عليهما – **قدماي**– كي أمر تحت أشجار يحتمل أن الخريف أعلمها بقدومه، لكن أجد أوراقها لا زالت تحمل طراوة لا تسمح بالتكسّر الحزين والصريح، لم تكن تحمل ما يكفي من الموت لتمنحني شيئاً غامضاً وصغيراً، قد يسمى الفرح. أمارس كل ما مضى بحزن لست ألحظه، ثم أقف لحظة وأفكر به.

لماذا لم أستطع الدخول إليك؟ تنتظرني صديقة كي تستعيد طفولتي. " هرمتُ.. ونجومي لا ترَدّ "..

وأنت تقول إنه الشتاء فقط. وأنا أنتظر الشتاء بخوف، خوف أن يصل ولا أصل، أن أكتشف أنه عاد، وما عدتُ.

صوت يقرع النافذة خلفي. آ آآ.. لقد وصل.. المطر الأول دونك.

خسارة المطر إذ يسقط على عمان، لا رائحة للأرض هنا، التراب الأحمر الذي يسيل من أي مسرب متاح.. غير موجود. أتذكر انبعاث الرطوبة من شوارع اليرموك واربد.. رائحة غامضة.

أقصى ما لديّ الآن أن أقف قبالة الشبّاك الضخم وأتأمل خارجاً محاولة إيجاد خلفية قاتمة تمكنني من رؤية تقطّع خيط المطر.. عبثاً.. استدلالي الوحيد عليه كان من انبلال الشوارع ولمعانها. أي اندلال بائس !

أفكر أن اتصل بك لأقول لك أنه وصل..

لكن أين سأجدك؟ من أين ألملمك؟ من غبار أزماني وأمكنتي؟

على كل حال.. شتاؤك وصل.

أفكر أن صوتك اليوم حزين.

حزين دونما حزن كثير، ودونما كلام.

قلبي اليوم يشبه صوتك.

أما زلتَ وحيداً؟ وأليفاً كما الدفء؟

أخلق دخولاً ذاهلاً إلى مدينة غريبة، والارض مبتلة بشتاء استيقظ متأخراً. الشوائب السوداء في الهواء الشافّ يمكن لمسها بالأصابع.

أخلق دخولاً إلى مدينة نائمة.. أسميها زرقاء، وأغنية تهبط على القلب كشيء ماضٍ.

أخلق وصولاً من سفر في وقت لا يصلح للحياة، يصلح فقط للانلمام والانحضان.

وحدك.. تشرب الشوارع حزن عينيك أو بلادتهما.. كما تصل روحك حين تغادر.

أريد دفئاً، فأخلق جدّةً بعينين زرقاوين وأصنع لها بيتاً. لا جدة لديّ ليذكرني بيتها ببيت ختيارة الاغنية. لا أصنع لها بيتاً بل غرفة صغيرة لتصير ملجأي ومنفاي. تتباطأ ايقاعات الحياة فيها.. فأنام، وأحلم أحلاماً محكوم عليها بالنسيان سلفاً. ثم، حين أراوح حول صحوي، أسمع إيقاعاً رتيباً. لكن عيناي مغمضتان فأضيع عن مكاني، ولا أعود أعرف أين أنا، أعرف فقط أنني أكرهه ذلك الإيقاع الرتيب، إنه يخنقني. ربما أنه صوت دوران مروحة السقف الواطيء، أظنني أفتح عيناي وأبحلق في دورانها المستفز، يدور رأسي ويدور، تدور المروحة في تلك البيوت الخانقة، حيث ينفرش البساط البلاستيكي الأزرق بمربعاته الزهرية الباهتة، وتنفرش فوقه فرشات إسفنج تتماثل ألوان وجوهها في كل البيوت. يجلس الكبار ببلادة، ضجرين، يبحلقون في القناة التلفزيونية الوحيدة المتخمة بالغبار والوجوه الغارقة بالمكياج الصارخ والساحل، ويكون الجميع هناك، ضجرين ومستغربين من شدة الحر –**يا للمفاجأة! حَرّ**؟– والمروحة تدور أكثر وأكثر وتدفع الهواء الساخن ليجفف العيون. أراني هناك، ولداً جميلاً يحيطه رعب أبويه ورعبه كيفما تحرك، هناك، تحت المروحة، أفكر في ابن صفي السوداني الذي مات أبوه فجأة، كيف، من بين دموع أمه وأخواته، كان فرحاً لأنه سيعود –**ولو دون أب** – بهذه السرعة التي كانت تستعصي حتى على أحلامه إلى حارته ولعبه، سيعود للحياة. لم أستطع أن أقرر أيهما أحب أكثر، أبي أم الخلاص من دوران المراوح الرتيب ومن الهواء المشبع بالملوحة والماء الثقيل. لكن.. لامس إغماض عيني هواء بارد، ففكرت أن هذا الصوت الرتيب ربما لم يكن مروحة، ربما هو صوت فرشاة الغسالة تدور ثم تعكس اتجاهها، ثم تدور ثم تعكس ثم تدور، حفلة غسيل طاحنة تجقجق فيها المياه، وتتطاير إلى ملابسنا فتلطعنا الكهرباء حين نلامس الغسّالة التي قشرها الصدأ، وتنتزع صرخات مذعورة قصيرة من أمي كلما كهربتها، وتثير أشجاننا كلما فكرنا في ما قد يحدث لها لو... أحس بالضياع والخوف فتمتليء عيناي المغمضتان بالدمع، وتسيل الدمعة الأولى عبر مسرب جانبي، فأقلب جسدي على الجنب الآخر. تفّر دمعة أخرى فتسقط عبر الارتفاع الشاهق لأنفي على الوجنة الأخرى، فأقرر أن أفتح عينيّ لأعرف ما هو هذا الصوت، أفتحهما، فتقع عيناي على جدتي في الحوش، الشمس تسقط على غطاء رأسها – الزاهي كما لو لفتاة في العشرين–، وقطتها تجلس باسترخاء عند طرف ركبتها المثنية تحتها، والبربيش يسيل على شجرة التوت التي ربّتنا. جدتي تتحرك حركة رتيبة ويصدر ذلك الصوت من عندها، ملت برأسي أكثر فرأيتها تجرش العدس، هكذا، بكل طمأنينة. العالم كله لا يعادل سكيتي عندها، فأقرر أن أتوقف عن اللهاث.

يعجبني الآن أن أجعل الصيف يأتي لأصنع لغرفة جدتي سقفاً منخفضاً وظلاً رطباً معتماً، وأجعل معي أولاداً وبنات لا أعرف أحداً منهم. كلنا أحفادها. تلمّنا وتقلقها شقاوات

نومنا تحت الفرشة، على البلاط المشطوف مباشرة. نكون صائمين فتصنع لنا تمر هندي. توقظنا فجراً فنسرق الوضوء ثم نصلي معها لنفرحها. وتكون هي تحتفظ ببقايا أيامها، خزانتها مليئة بعلب الأدوية الفارغة، علب الحلوى التي نسرق حلواها وهي تظنّها ما زالت مغلقة. تكون جدتي بهدوئها البطيء تلملم كل شيء كي لا يبقى ما نخاف منه. هي.. ساتر فضائحنا الصغيرة كما أعمارنا.

لكن جدتي لا تحب الغرف الصغيرة ذات السقف الواطيء، ولا أستطيع الاقتناع بجدّة غرفتها مبلّطة، فأجعل أرضيتها التي أكلت من ركبتيّ صبّة أحفظ خدوشها وحُفرها. أجعل الغرفة واسعة جداً وسقفها عالٍ، نكون صغاراً وتكون الغرفة كبيرة جداً. ثم أدخلها مرة أخرى فأندهش. أدرك أنه بينما نكبر نحن، تصغر الغرفة وينخفض سقفها. فتفقد تلك الغرفة الغامضة سحرها الآن. أتركها وأدخل إلى مطبخ سهيت عن تفاصيله، أبحث عما آكله، أفتح المرطبان الزجاجي، تهبّ رائحة العفن وأشياء حيّة صغيرة تتطاير في وجهي.. أغلقه. في الثلاجة المعطّلة لا أجد سوى فاكهة تالفة. أرفع فرشة جدّتي المتعددة الطبقات فأجد كل شيء، كل شيء. أجهزة كهربائية مغلّفة وجديدة، ثلاث مكاوٍ لا تعمل، زبيب وقطّين، فسطان الطهور الأورغانزا الأبيض الصغير الذي ارتداه جميع أبنائها، مسابح من كل الأنواع، حناء لشعرها من آخر حِجّةٍ لها قبل خمس سنين، آثار أسنان صغيرة على الحافة الثخينة للّفة قمردين، قماشات بألوان وأحجام مختلفة.. عائلة فارّة لا تجتمع أبداً.. تجمعنا نحن وتتركهم لفرارهم.

تطلب مني أن أقف أمامها ريثما تضع بعض الحليب فوق خبز مفتت ومغموس بالسمن البلدي، في كبشاية أكبر من صبري. يحتال اشتياقها على كبريائها فتسكب الحليب من وعاء يغلي فوق النار إلى الكبشاية بملعقة طعام صغيرة تستنفذ أسئلتي وتعيدني لأفكر بي. أخلق نمليّة لجدتي تشبه حياتي، تلمّ فيها كل شيء علّها تحتاجه في أيامها القادمات، كؤوس دعايات الكوكاكولا وال – آرسي، الكؤوس الكثيرة التي لا تقلب على فوهتها كما يليق بالنمليّات، ولكن تلّم مفاتيح الغرف التي اختفت، وتضم قماشة مخملية خضراء فيها زغب أول قَصَة شَعر لطفل ما، وتضم خرز مسبحة انفرطت، وخيطان مصّيص، وبضع حبات من الناشد والسلفانا تخبئها كي ترشو بها طفلاً علّه يشتري لها رغيف خبز، إبريق بطيخيّ اللون زجاجه مبّزر، جاطات عرسها الزهرية والصفراء. أنظف لها بيتها، فتدفعني طفولتي وحبي لها وحماسي وقذارة الأوعية لإنزال كل ما في النملّية، أسألها عن العلاقة بين النمل وتسمية هذه الخزانة لأجعلها تضحك بتلك الطريقة، ولا يكون لضحكتها صوت، تكون ضحكتها مكتومة لكن جسدها كاملاً يهتز وتسيل دموع زرقاء من عينيها فأتوقف لأستمتع بضحكتها التي تدهشني. أحاول تهدئة خوفها من انزلاق شيء من يدي. وأرى تعكّر مزاجها الذي تحاول إخفاءه من هذا الاقتحام لخصوصية نمليّتها بصمتها الذي

يعلن ثقته بي. تتركني أفعل ما أريد، أنظف الأشياء وأغيّر ترتيبها، أضع المفارش الزاهية فوق رفوفها، أقلب لها الدنيا رأساً على عقب وسط ابتسامتها التي لها طيبة أرغفة الخبز الساخنة، وحين أتعب في منتصف هذه الحفلة تحاول إقناعي بقبول مساعدتها لي، فأشيح بعينيّ عن وجهها وأنا أرفض، فتعرف هي أن رفضي الآن ليس قاطعاً، تمدّ يدها معي وهي تنثر دعواتها الطيبة حولي ولي، وحين ننتهي من كل شيء، تفرش لي فرشة ملونة ولا تتركني أجلس على الجنبيّة تقديراً لجهودي، ومع العافية التي تلحّ على الله أن يمنحني إياها، تستلّ فرحي ودهشتي بصحن الالمنيوم المليء بالتوت الأسود اللذيذ، أو دلو الرائب الأبيض الفارغ الذي ملأته لي بقطوف العنب الأخضر المكتظّة، أو بسَفَط الراحة المعطّرة والبسكوت، وفي أشد الحالات إقفاراً تخرج لي بعضاً من البسكوت اللذيذ بحرفيه الباهتين ج.ع. ثم أعود لها بعد حين فتحاول هي أن لا أدخل للمطبخ لأي سبب. أستغلّ صَلاتها لأدخله فأجد كل شيء قد عاد لمكانه الذي تعرفه يداها، الرفوف والنملية، المرطبانات الزجاجية والطناجر النحاسية، محماس القهوة وتلك الحديدة الطويلة التي يحركون بها القهوة واللذين أصر على التعامل معهما كمنظر وتعليقهما على الجدار، يعودان بفضل يديها إلى عاديتهما كأدوات مطبخ عادية دون امتيازات.

هذه المرأة قليلة الكلام، الطيبة بلا حدود، والمدللة بلا حدود أيضاً، كيف، وهي تناهز الثمانين، يكون إحساسها بذاتها كامرأة يملؤها -**الآن أدرك بداية هوسي بكتابة نصّ المرأة الذي لا يسمح بالانتقاص، الذي يريد كل شيء كاملاً وشامخاً**-. تخيط ثوباً جديداً بلون أحمر قانٍ، ترتديه بعادية تحت شرشها الأسود دون إعلان عنه، لا تنتظر مناسبة لترتديه، وحين تلتقط أعيننا اللون الجديد يصير لون وجهها يشابه لون الثوب الجديد. تصر على مسح كندرتها السوداء اللامعة بمنديلها القماشي قبل أن تخرج من البيت. ندخل الحمام وراءها فتفوح رائحة الطيبة.. لست أدري كيف يكون للطيبة رائحة، لكنها هي رائحتها. تخجل كما كانت وهي عروس صغيرة لم تتجاوز السادسة عشر، وتظلّ غريبة كما سرقها ذلك الرجل من حضن أمها ومن بين أهلها، وقورة، عديمة الشكوى، متحمّلة. تختار كلمات لها تشبه كلماتنا الحديثة، وتنطقها بإدراك أن ذلك يقرّبها منّا.

أحببت هذه الجدّة الدافئة كثيراً، أحسست بالفجيعة لأنها لعبة صاغها بردي ووحدتي، زادت وحشتي وصارت الحياة دونها لا تطاق. أحسست بالذنب لأنني أحببتها أكثر من جدّتي الحقيقية التي تذكرتها الآن. أقلقني أنني لم أفكر في لحظتها الأخيرة، استيقظت مرتدية جسدها بثوبه الأسود، وعيناي مزيج غر مفهوم من عينيّ وعينيها، رأيتني هي في لحظتها الأخيرة، رأيتني أضع رأسي على كتفي ثم أغفو في الموت. لم يساعدني ذلك على احتمال فجيعتي بكذبتي. ثم وجدت الحلّ، سأجعل الجدّة الدافئة هي جدّتي الحقيقية،

وأرسلها إلى الموت. هكذا سأحتمل غيابها لأنه ليس من صنعي، سأحسّ بالحزن عليها ولكن ليس بكراهية نفسي.

أحاول خلق موت جميل لها فلا أستطيع. بعينيها الزرقاوين ووشمها الأخضر الواضح على بشرتها البيضاء الطيبة، بزوجها الذي تخاف رؤيته شائخاً أو ثقيلاً أو طيّباً.. كانت لا تموت.

يرهقني غيابها غير المبرّر، فأفكّر أن ذهابي إلى بيت جدّتي فعلاً سيساعدني. وهناك، لا أستطيع أن أجد مفتاح البيت المهجور. هذا أفضل، فلست راغبة في صورة الخراب الطاغي على المكان دون شك.

أدخل الحاكورة التي يعتني بها رجل مسنّ كنوع من الحفاظ على حق الجيرة -**لمن؟**-

زهر رمّانتي الهزيلة يتناثر فوق السنسلة المهدومة التي ينحشر مع حجارتها رعبي القديم من الأفاعي. تكون السنسلة مسوّرة بخوفي منها وبحنين الدالية للارتماء فوقها، وأكون أنا مسوّرة بعطشي. ألفّ حبة توت نيئة حمراء ما زالت، بالورقة الخضراء دون أن أمسحها وآكل شوقي لتلك الأيام. الطفولة المرمية في عمق ذاكرتي توقظني على وجعها المتأخر.

الحموضة التي أعادتني دفعة واحدة للأيام التي كنّا ننزرع فيها فوق التوتة مثل أوراقها، نلطّخ ملابسنا بالسواد وأجسادنا بالخدوش الصغيرة ونلطّخ براءتنا باستراق النظر من فوقها إلى غرفة نوم الجيران، الحموضة التي أصابت قلبي ومعدتي المهترأين ليست هي ما يبكيني. لدهشتي بكيت على السنسلة المهدومة، كأنها كانت يوماً صحيحة ! كنت أريد البكاء وعلّقتُ فوق هذه السنسلة رغبتي.

أراني هناك.

تلك أنا.. واقفة في فرجة الباب. أسند ظهري للحلق الخشبي لباب غير متضح المعالم.

ها هي تقف.. أنا

تسقط أشعة الشمس عبر التخريم الأبيض للكنزة التي ترتديها متهدلة ومريحة.

تقف.. شعرها طويل أسود ذي حلقات يتهدل على كتفيها من الجانبين.

ووجهها حزين.. أنا.

ترفع ساقاً.. تسند جسدها على الحلق الخشبي.. تسقط الشمس في عينيها.. أنا.. فيلتمع الأخضر المتواري.

أغلق عليّ باب غرفتي، فتضحك المسافات لقدومي. يضحك السرير والمرآة المكسورة والمذياع والطاولة وأوراقي التي أتعبها الصلب على الجدران.

سريري الشاحب المزعج -**تحبّباً**- كان هناك، منزوياً في زاوية الغرفة -**حيث يسيل عرق الجدران على قصاصات الجرائد المعلّقة عليها ويغيّر ألوانها إلى الأصفر الأسود**- بين نافذتين يوقظهما طرق أغصان شجرات لوز الجيران، وطاولتي الفجّة تستلقي هناك، تحت شبّاك الشمس حيث تتسلل أشعة خجولة من نقطتين متقابلتين.. تلتقيان فتشهر الشمس فرحها في مواجهة عتمة روحي.

طاولتي تحمرّ خجلاً لكثرة جلوسي إليها، لا أملّها ولا تملني، وغرفتي تغلق رحمها عليّ وتمدني بحبل سري يحييني. كنت هناك حيث ينتهي النهار وينتهي الليل ويبدأ ذلك الوقت الذي لا اسم له، حين لا يظل سوى ذلك الساهر الذي يقرأ القرآن، وأظنّ أنا صوته ربابة أشباح حزينة فلا ألتمس لها عذراً. وتهدهدني غرفتي السمحة معي أكثر مما أستحق. غرفتي التي تعرف أنني أحبها فتغفر لي أنني لا أترك شيئاً مني فيها، وأنها لا تشبهني في شيء، رغم أنها هي التي تشبهني، أنا وهي نعرف أننا نشبه الأماكن التي تعيشنا، نحن نشبه دورنا، أنا أشبه داري. غرفتي تلدني؟.. لا. داري تلدني وأنا ألد غرفتي، داري جدباء أنجبت روحي جدباء، دور ملآنة بالتفاصيل تخلق فتيات ملآنات بالتفاصيل.

غرفتي الخالية، المهمَلة، يملأ فراغاتها غبار منسي، والأشياء التي تعتق في أماكنها، لا تنزاح ولا تتغير. المرآة -**المكسور طرفها**- تعكس الصور بصعوبة، وباب الخزانة الذي قتم لونه يحمل ياسمينة تشبه قطاً ضالاً.

أحببت أشياءها القليلة والثابتة، لا تفاصيل، لا هدايا بأوراق مفضضة، لا صور بإطارات ذهبية، لا أصوات للشوارع التي تسير في قلبي.

لم تكن غرفتي شعبية كما شارع السعادة، ولم تكن زاهدة مثل الأديرة التي سأقطنها.كانت الأشباح ترافقني فيكتظ عليّ فراغي. كانت ازدحامي وتعثري. مساحاتها خالية لأنها مثلما تتراكم عليّ التفاصيل التي أعشقها فلا ألتقط شيئاً منها تخلو هي من أشيائي.

الدور المتقلبة تثير دهشتي، ولا أعرف هل أحبها أم لا، كان يعجبني أن تكون قطع الأثاث مثل الليغو قابلة لأن توضع بأكثر من شكل وموقع، لكن، أنا لم أكن أستطيع ذلك. ربما كنت أكثر مللاً من أن أغيّر أي شيء.

كنت أقلّب مؤشر الراديو على محطات الإذاعة حتى تنام. كنت من الذين كبروا قبل الساعة الخامسة والنصف، لذا لم أعرف أم كلثوم، لم أعرفها، ولم ينكشني صوتها، أو كنت من الذين أضاعوا كثيراً من الأشياء إهمالاً ففاتني أن أكبر على مواعيد أغنياتها، كانت مسألة الاكتشافات المتأخرة تثير ضيقي وخوفي؟ هل كان هناك الكثير من الأشياء التي لم أكتشفها بعد؟ في لياليّ المتأخرة هذه تعرفت إلى أم كلثوم، وصوت ليبيا الذي كان آخر من ينام، والأغاني التركية الحزينة، والإذاعة التجريبية الغامضة والمجهولة التي لم أكن أعرف شيئاً عنها، لم يكن فيها بشر يقولون من هم، كان شخص وحيد يأتي صباحاً فيضع شريطاً طويلاً طويلاً ثم يغادر، فتنساب أغانٍ وأغانٍ وأغانٍ دون توقف.. وكنت أستمع. أجلس في غرفتي الوحيدة والباردة، أضغط أحشاء الراديو المندلقة بين يديّ كي يعمل، فينطلق مرسيل وسميح شقير. أغيب بعيداً في الكلمات التي لم أسمعها من قبل، الكلمات التي لا أحد حولي ينقذني لأعرف لمن تكون.

أستطيع، بعد هذا العمر الذي يتيح لي الإطلاق، أن أزعم أنني لم أستفد من أي معرفة لم تنتجها حواسي، لم أستفد من كون البشرية بدأت قبلي، ولم أستفد من معارفهم المتراكمة عبر آلاف السنين، أنا صنعت معرفتي في وحدتي. كان الباب ينغلق عليّ، فأبدأ – **مقرورة**– التفكير في أي شيء، وأضيع بين المفارق التي ضاع عندها بعض أجدادي، ثم أجد طريقاً تمضي بي إلى نهايتها حتى أملّها أو أتعرقل فيها بما لم أحسبه قبلاً فأعود وأكرر محاولتي، فأصل أحياناً لما أجده فيما بعد مُصاغاً بسهولة وأناقة في دفتر مدرسي ساذج، أو على لسان لم يتعب ذهنه في استنتاج هذه المتناقلات.

لم يكن حولي أحد، لم ألقَ أحد يحب أشياءً ويخبرني عنها لأحبها. ظللت لا أعرف ما يمكن أن أحب ولا ما يمكن أن أكره، لم تكن لي أخوات لأعرف دهشة المراهقة ولا زهو إدراك الجسد لقيمته، لم يكن لي أصدقاء لنتبادل الحديث عن أي شيء، قرأت مليون كتاب لأفرح بثلاثة كتّاب، وسمعت ألف أغنية لأتجنب من لا أحب، وحدي عرفت الرائعين والقذرين، عبر عمر استهلكته في المعرفة الصعبة.

في ذلك العمر الصغير.. العمر الصغير المالح والوحيد، هناك، كانت الليالي تتعرى من كل شيء سوى من ابتهالاتنا الحارّة ليصبر الذين نحب حتى نعود لهم.. ألا يموتوا قبلاً.

هناك، كانت الشوارع عريضة والشمس مبتذلة. وهناك، كانت مشاويرنا كئيبة.. لم يكن معنى للألوان هناك.

يسكن الذلّ في أرواحنا الصغيرة. يختبيء تعالينا عميقاً جداً ولا يظهر إلا أمام أحبّتنا البعيدين لنطمئنهم أننا لم ننكسر.

متعة أيامنا.. الأسواق المبرّدة والمغلقة، وروائح الهنود المميزة التي تعلق ساخرة على أجسادنا و في أسرّتنا، تضطجع بيننا وبيننا وتغلف الهواء حولنا. هناك، شعرة سوداء طويلة تتأرجح على طرف المغسلة.. وزيت يدبق على حواف الطاولات اللامعة بعرقهم.

كان جنوب شرق آسيا حاضراً هناك، بوزرته المربعة الخفيفة المرفوعة إلى أعلى فخذيه، بنحوله الأسود المريض، بعينيه المبالغ في بياضهما وابتسامته الفاترة.

كانت كيريللا هناك، بحقول أرزها الغارقة في الماء وأبنائها الغائصة أقدامهم لما فوق الكواحل في مياهها. ببدائيتها وجهلها بالكهرباء واشمئزازها من أطعمتنا النجسة، ترسل أبناءها المرعوبين إلى هناك، هناك حيث لا يجدوا سوى الرز أليفاً، وحده من يعرفوه، رأوه في حضن أمهم، أليفهم الذي يمنعهم من الموت، يحافظ على شيء قد يسمى رمق.

وكيريللا كانت تنصب آلهتها ذات السرر البارزة في بيوتنا، تخبؤها في زوايانا دون أن ندري. نرى القرابين تتجدد ولا نسأل خوفاً من العيون الجاحظة، ونرى الوردة التي توضع كل يوم باحترام على الآلهة النحاسية. وأصابعهم السوداء، أصابعهم النحيلة السوداء تلتف حول رقابنا، تغلّفنا روائحهم فلا نستطيع الخروج منها، يصير لنا شعرهم الأسود الفاحم الغارق بزيت جوز الهند وتصير لنا لكنتهم.

صيف.. وصوم.. وطفولة تحتال على جوعها وعطشها بالتناسي.. والمسلّمات المثقلة بالإيمان.. النَسوَة -**المفردة المؤنثة للنسيان**- رحمة.. والمنسيات التي تصطف في طابور ثم تتطاير إلى الجنة. الممر خلف الدار العتيقة يلعب فيه الغبار وأوراق علكة عاشور الفارغة والأكياس السوداء تتطاير. كنا نغفو في لعبنا ونأكل في صومنا. نُشرِك الجدة الطيبة في تخيلاتنا ونُدخِلها راضية في بيت بيوتنا، نجمع علباً فارغة، صفائح صدئة، كاسات مكسورة، كراتين ضخمة، نرتّبها بيوتاً، ونتزاور. نتبارى -**بدأنا ذلك مبكرين**- من يلمّ متاعاً أكثر. ننظف ساحة ترابية من الحجارة الصغيرة ونمسّد ترابها بيدينا، نحوّله ناعماً كأيدينا الطفلة ثم نرصف حجارة كبيرة حدوداً لبيتنا. نصنع بوابة من خشبة نزيحها كلما دخلنا أو خرجنا. كنا نستعجل العمر، نتحدث كما تفعل أمهاتنا، ونصر على احترام الوظائف المفترضة بكلّ هذه القمامة. كنا نفرح، وحده وجيب القلب المتسارع كان يزعج لعبنا. كنا نخشى صوتاً كبيراً يطلب من أحدنا الدخول أو عمل شيء ما.

كان اللعب الساحة التي بنى القلب فيها حبه الأول، وكانت الأدوار تتحدد وتتجدد وندوّرها فيما بيننا.

بيننا وبين أمهاتنا لم يكن الخيار لنا في الأدوار التي نقوم بها.. كنا نضطر -**منذ ذلك الزمن**- للقيام بما لا نحب. رجاءاتنا الحارة للأمهات أن يتركن لنا الأعمال المنزلية التي نحبها ويتولين الأعمال التي نكرهها لا تجد صدى غالباً، فقد كنا في أحسن الأحوال مضطرين للقيام بأشياء تقع على هامش أعمال دنيئة مثل الغسيل.

والغسيل يعني الدمار بالنسبة لي.. حتى الآن، وبعد أن صار لدي غسالة ميت فل أوتوماتيك، تقف بأناقة إنجليزية مفرطة في غرفة خاصة بها باستقلالية تامة عن الوضع المشين السابق الغارق في الأجواء المشبوهة للحمامات، وتعمل بصمت يذكرني بجندي مجهول، كانت مستغنية تماماً عن وجودنا، نحن من كنا نحتاجها، نضع فيها نتاج إفرازاتنا، فلا تطلب لا ماءاً ولا منهلاً لتصريف المياه، لا شيء، تقوم بالكل وبصمت وتنتظر مترفعة أن أتذكر أخذ الغسيل الناشف منها، وحين أفعل، فإنني أقوم بذلك برهبة تشبه الاحترام الغامض لقصيدة لا نفهمها ولا نستطيع إنكارها. وحين أحمل الغسيل بسرعة وأخرج من غرفتها وأطبق الباب ورائي بحذر ثم أسند ظهري له بارتياح، ألمح على وجهي في المرآة المعلقة أمامي ما يشبه ابتسامة سخرية من إحساس عابر بحنين غير مكتمل أو ربما غير متوقع وربما مضحك لتلك الألفة التي أدركها الآن -**متأخرة**- بيني وبين غسالتنا القديمة التي تشبه النساء البدينات ذوات الوجوه البشوشة، ألفة؟ لا، لا أظنها كذلك.. هي شيء يشبه أن نتذكر إساءة كانت موجعة في حينها وصارت الآن قديمة جداً، أقدم من أن تواجه بغير التسامح بأسى. برميلها الأسود الضخم، وفرشاتها التي كانت تزهو برقصها الذي

يشبه رقص الفرقة الجزائرية في جرش البائسة، واستغراقي المندهش في عصارتيها اللتين تسحبا قطعة الملابس بينهما دون اكتراث بقيمتها الاعتبارية -**مثل جاكيت نجاح الذي أعلنت بكشرة واضحة أنها لن تعيره لأي من أفراد أسرتنا بعد اليوم**- أو ضخامتها -**مثل بناطيل الجينز التي تشابه مخترعيها في عدم الحساسية**- أو رقتها -**مثل قطع الملابس الداخلية التي يرافقها نبضي أثناء دخولها للمعصرة وحتى انزلاقها خارجة بسلام غالباً من هذه المجزرة**-.

كان الغسيل دماراً تاماً دون أي مبالغة، وكنت أعرف أن هذا الشعور يوحدني مع كل النساء العربيات، كل النساء من سن الثامنة إلى الموت، اللواتي لا يستمتعن بامتياز الذكورة التي تتيح لهم نتش أحذيتهم وارتداءها أثناء الجري خارجين من البيت بانتظار الانتهاء من الغسيل. كانت تفاصيل الغسيل في أي بيت تتطابق معها في أي بيت آخر بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي لها البيت صاحب حفلة الغسيل -**كان الفقر عاماً وطاماً وكانت الطبقات ما زالت متقاربة بما يتيح لي هذا التعميم**-. فقد كانت أدوات المطبخ والحمام والجيران جميعها تستخدم في مثل هذ اليوم، السطول على اختلاف أنواعها، الحديدي منها بعلاقته والبلاستيكي بشرخه المتفاقم، صدور الألمنيوم واللجن، الطناجر الكبيرة والسخّان الوحيد، أكوام الملابس تنتثر في كل بقعة من المنزل.. أمام الحمام وفي الموزع الصغير أمام الغرفة، على أرضية المطبخ وفوق طاولاته، القطع الداخلية التي كنا نخبئها في أسفل كومة الغسيل كانت الآن توضع وحدها بما لا يتيح مجالاً للاختباء.. كانت معلنة.. دون استحياء. وكنزاتنا الصوفية الجديدة -**نسبياً**- التي كنا نتعامل معها بنعومة ورقة لم نعامل أي شخص قط بها، ونتذابح كي لا يصبح ارتداءها مشاعاً.. كنت في يوم الغسيل أركض هنا وهناك محاولة أن أجنبها الأقدام المبلولة والمستعجلة، لكن أمي كانت تضعها على الأرض بلا احترام ليدوس على طرفها كل داخل إلى الحمام وكل خارج منه -**كنت أفكر إن كانت أمي تفعل ذلك بتعمد، كيف إذن كان يصدف دائماً أن تكون الملابس الجديدة هي من يناله الحدّ الأقصى من البهدلة؟**- كان صوت الغسالة وصوت البابور وصوت صراخ أخواني الصغار الجائعين المهمَلين، وعصبية أمي المتفاقمة، وهروب ذكور البيت جميعاً، وأسماء أموات الساعة العاشرة من الراديو الذي لا يصمت، وخوفي على أمي من انزلاق السخان الصديء المليء بفوط الصغار البيضاء المغلية من يدها أثناء نقله من البابور لتصبّه في الغسالة، وخوفي على وجهي الصغير من التزحلق لأهوي به على البابور كما حدث لوجه إنعام الجميل الذي ما عاد كذلك، والألم الذي كان يقسم كف قدمي أثناء ركضي بين العصارة وحبل الغسيل الذي تمسكه أمي بيديها المفشفشتين وصبرها الذي نفذ، هذه الآلام جميعاً كانت تختتم بحفلة النشر التي هي الإيذان الأكيد لي بقرب انتهاء كل هذه المعارك، وبقرب الوجبة الأولى منذ الصباح. كان النشر بداية البشارة

وبداية القطاف. كنت أبدأ بالابتهاج عندما يبدأ صف القطع واحدة واحدة. كان للنشر طقوسه المقدسة، كان يدلّ على أناقة الناشرة وخبرتها، ومدى رقتها وأنوثتها، حساسيتها أو عدمها. لذا كان الحرص مضاعفاً هنا، كان النشر مفخرة أمي أمام الجارات المتأهبات للانقضاض بضحكاتهن الرقيعة وغمزاتهن الفاضحة، ثم الاستخفاف والانتقاص الوقح من خبرة صاحبة المنشر. كان الترتيب حسب اللون والطول والنوعية. وكان يجب تجنّب الأمور المحرجة، فعيون النساء الملتمعة ونظرات الرجال الدنيئة كانت لا تجهل كيف تربط بين قطع الملابس المنشورة وبين عمليات الحفاظ على النوع، أما القطع المحرجة فكان يجب نشرها بحيث تُوجد ولا تُرى. تُشبك بين قطعتين محتشمتين.. تُخبأ.. كنت أسأل أمي -حين كانت الشبهة لم تحق بي بعد- لماذا لا ننشر هذه القطع مثل غيرها.. نفردها ونتيح لها أن تنشف بسرعة دون أن نضطر لتنشيفها على الصوبة إذا استعجلنا في ارتداءها.. لماذا نخفيها وكأننا ننشر الأجزاء التي ترتديها من الجسم (هنا كان جزء من شفة أمي ينزاح لليمين كأنه على وشك الابتسام)، وكانت أمي تشرح لي أن من تفرد هذه القطع الفاضحة على حبل يضطر المارة لإزاحة الملابس المعلقة عليه ليمروا من تحته، هي امرأة لا تخجل بالتأكيد.. ثم -**حين كبرتُ قليلاً**-، كانت النظرة التي حدجتني بها ذات مرة كافية لأتوقف عن طرح هذا السؤال -**الذي كان لا زال يحوس داخلي**- علناً.

بعد النشر،كنت أتساءل كثيراً -**وفيما بعد، حين كبرت، فتشت عن علاقة للهرمونات بالموضوع**- عن منبع الطاقة الذي يجعل امرأة تبدأ سلسلة من التعزيل بعد حفلة غسيل مأساوية. كانت تعمل وتعمل ولا تتوقف لأي شيء، لا بلل أخي الصغير، ولا الشجار الذي دبّ بين أختيّ على المسطرة، ولا ألم خاصرتي المزعوم، ولا عودة أبي من هروبه خارج البيت، كانت لا تقف حتى تنتهي من كل شيء. لا تأكل ولا تشرب ولا تدخل الحمام إلا لتسكب الماء الذي في الدلو الحديدي من مخلفات المسح على أرضية الحمام. ثم، حين يشعّ كل شيء في البيت نظافة، وتفوح رائحة الفونيك الذي شطف به الحمام والمطبخ، وتأخذ الأرضية في الالتماع بفضل الكاز والألم الذي يقصف وسط أمي. حين تمرّ الجارات على غسيلنا دون تعليقات، والأشياء تعود لأماكنها الطبيعية، واخوتي يجرؤون على البكاء من الجوع، تعلن أمي انتهاء الحفلة باستخراج طنجرة الملفوف التي تظهر فجأة من حيث لم تستطع خبرتنا في التفتيش أن تجدها، وتضعها على نار هادئة، ثم تحمل حجر الخفاف الأسود الذي تفرك به كعبيها وصابونة المفتاحين وإنهاكها وتذهب لاستحمامها الذي كان يغمرها بالفرح ويغمرنا بالسلام. وبعد أن ننهي عشاءنا، كانت تتملّص من دلع أخي الأصغر وتنسلّ من بيننا إلى المطبخ لتقلي لنا وسط صيحات فرحنا بعض أقراص الزلابية، وبعد أن تنهي القلي ترش عليها السكر وتضعها أمامنا ثم تصب الشاي في الكأس النظيفة وتناولها لأبي بحنوّ يفاجؤني، من أين كانت هذه المرأة تأتي بالطاقة لتفاجئنا وتفرحنا، من أين لها هذي

النعومة في الصوت بعد يوم مليء بالصراخ والأعمال الشاقة، كيف يطغى حنانها على إرهاقها، أي حياة هي حياتها؟ – فيما بعد، وحين لم أستطع أن أتجاوز بعض المقارنات، توقفت عن طرح سؤال كهذا –، ثم كانت تضع أخواتي الذابلات في الفرشة العريضة وتغمرهن باللحاف الثقيل، وتضع أخي وكأس الماء إلى جانب أبي الذي يعلو شخيره،ثم ترفعني لأجلس على كرسي المطبخ الخشبي العالي –**عالٍ بما يكفي لعدم فهم السبب في ذلك**– وتبدأ بعمل التشطيبات النهائية قبل النوم، الأعمال التي يمكن أن تمارسها دون الحاجة للصراخ ولخروج الجميع من البيت. تكوّم جل العشاء كله على الأرض وتضع اللجن الغميق أمامها لتدعك الجلي فيه وليتلقى بقايا الأشياء التي قد تسد منهل المطبخ. كنت أرجوها أن أستلم مهمة شطف الأواني بعد أن تجليها، ذلك أن غطّ الصحون والكاسات في الدلو المليء بالمياه النظيفة ثم تسفيطها على صدر الألمنيوم الكبير، كان من الأمور التي أحبها، لكنها –**وكانت تظن أنها بذلك تكرّمني لاستطاعتي السهر معها**– لم تكن تقبل مشاركتي لها بهذا العمل الإضافي، كانت سريعة وكان الجلي كثيراً دائماً، كانت قبل أن تبدأ تسألني بسرعة إن كنت أنهيت واجباتي المدرسية بنبرة كأنها –**دون إرادة منها**– ترجوني ألا أتركها وحيدة وفريسة لإنهاكها وكنت أجيبها بالإيجاب دوماً بنبرة توحي بالثقة –**بالضرورة، كي توافق**– دون أن أشك أنها ستسألني متى فعلتُ ذلك، كنت أعرف أن رغبتها في بقائي تفوق قدرتها على تذكّر متى درست، ولما كانت لا تستطيع أن تساعدني في دراستي، فقد كانت تعوّض أميتّها وسهري بالقصص الكثيرة التي تقصها عليّ أثناء الجلي وترويب اللبن والتحضير لطبخة الغد، ولما كانت الأعمال المتعلقة بالمطبخ متسلسلة، حيث كل شيء يقود إلى شيء آخر بطريقة سيزيفية، فقد كانت القصص طويلة بالضرورة، طويلة جداً لتغطي الزمن الذي تنتهي فيه من الجلي، لتبدأ بتنشيف الخزائن التي تحت المجلى –**لم تكن أمي لتقنع باستخدام المجلى، وكانت تسخر من فكرة الوقوف طيلة فترة الجلي واستخدام الحنفية**– من الماء الذي تسرب إليها عبر الأرضية المائلة ثم تغيير الجرائد –**التي تقصقص أطرافها لتفرشها في أرضية الخزائن الرطبة المعتمة. كان ذهولي من الترف الذي تتسم به هذه اللمسات والذي لا ينسجم مع فقرنا ولا مع تعب أمي، يسبق الحيرة التي تنتابني تجاه السبب الذي يجعل أمي تقصقص أطراف الجرائد، هل كانت تزخرف الخزائن لتستطيع الصراصير اعتبارها حاضنة مثالية لبيوضها؟ من ينتبه إلى زخرفة أمي التي تبتل جرائدها كلما سقطت نقطة ماء في المجلى؟**– ثم شطف أرضية المطبخ بحذر على أمل أن لا يفيض المنهل الذي وسط المطبخ، هذا الأمل الذي كان يخيب دوماً فيبدأ إغراق المماسح بالماء الفائض وعصرها في الدلو الحديدي ثم إخراجه لسكبه في الحمام، مما يعني امتداد رقعة النشاط إلى خارج المطبخ. وهكذا،كانت تمتلك طريقة لتشدّني طويلاً إلى قصصها وتجعلني أغوص في الخيال.. كان عالمها الحزين قاتلاً.. عالمها الغنيّ باذخاً.. وعالمها الجميل ما

زلت لا أجد ما يشبهه.. لا في السينما ولا في الكتب ولا أفلام الخيال العلمي. كانت الوفرة عالمها الذي تعيش نقيضه، لم يكن شيء يحمل غنى الصور وآلامها وحبها وجمالها وخذلانها مثل نبرة الصوت التي كانت تقص بها قصصها، كانت ترسم العوالم التي لم تستطع العيش فيها، كانت تخبرني بألوان ثياب الأميرة وملمسها والأحجار الكريمة المعلقة عليها وترسم بأصابعها التي تدعك بالسلكة القاع المسودّ لطنجرة الالمنيوم الضخمة أحجاماً ومسافات، أحياناً كان السواد الذي يحشو جلد أصابعها من السلكة يخرجني من القصة لأذكّرها أنها ستدعك الأوعية التي لن تلبث أن تتسخ غداً مرة أخرى وأنه لا داعي لكلّ هذا الاخلاص في التلميع، لكنها كانت تكمل القصة وكأنها لا تسمعني، ثم تبدأ بدعك رخامة المجلى بقشور الليمون التي زادت عن ملوخية العشاء في موسم الليمون، أو بالسلكة وملح الليمون حين يكون الليمون سلعة نادرة. كان عالمها فقيراً وطيباً، كان الفقراء جميلين، والأغنياء بشعين، والأميرات جميعهن يحببن حطابين، والشر ينتصر دائماً على الخير في قصصها الحزينة التي تنتزع الدمع -**وسط حرجي**- من عينيّ، كنت أظنها تكون منشغلة عن دموعي بإعادة العلب والدلاء الصغيرة المليئة بالرز والسكر والعدس إلى الخزائن، لكني لمحتها مرة، كانت الدموع تسيل من عينيها بينما صوتها ما زال له نفس الهدوء، كانت سماحتها تجاه دموعي نابعة من ألم عالمها الخاص الذي تخلقه ليوجعها، وبينما كنت أكبر، كنت أتساءل عما يدعوها لخلق عالم حزين كهذا؟. وحين كانت تنتهي من كل شيء كانت تصبح امرأة أخرى، تفرش جنبية صغيرة على البساط الموضوع على أرضية المطبخ إلى جانب صوبة البواري -**التي أحضرها لها أهلها والتي أشعلت أكثر من نار بينها وبين أبي حتى استطاع أخيراً تقبّلها**- وتضع رأسي في حجرها مخاطرة بنومي ووحدتها ثم تحدثني -بينما تنقّي العدس المجروش من الحجارة - عن قريتها الصغيرة التي كانت تحلف أنها تستطيع تمييز طعم بندورتها من بين ألف طعم آخر. كانت تكافؤني بوجبة استثنائية إضافية بأن تخلط قليلاً من القزحة السوداء السائلة مع قليل من الطحينية وسط فخري أن الخلط بهذه النسبة خاص بي فقط، فقد كانت رجاءات أخوتي أن لا تزيد الطحينية عن ضعفي كمية القزحة أقل تأثيراً من رغبتها في استبقاء ما تدفؤنا وتعدنا به شتاءاً لأطول وقت ممكن. كانت قريتها الصغيرة تثقل عليها وكان حنينها لا يظهر إلا أمامي. كان أبي قد أخرجها من قريتها إلى مدينة موحشة لا يسكنها إلا العسكر ولا تحمل حبال غسيلها إلا الفوتيك، وكانت علب البويا هي أكثر البضائع المتداولة في دكاكينها القليلة، ظلت لفترة طويلة عاجزة عن النوم في هذه البيوت التي تخنقها رائحة الخراء الذي يضعونه في حفر صغيرة داخل بيوتهم، كانت تخجل من حياتها ومن بيتها وبالذات حين كانت تنجب طفلاً، فقد كانت أمها وأخواتها يأتين ليمكثن عندها يومين أو ثلاثة.. فكان أكثر ما يخجلها هذا الحمام الذي كانت أخواتها يتحرجن من الدخول إليه، هكذا أمام الجميع الجالسين في

الغرفة الوحيدة، فكن ينتظرن الليل ويخرجن للعراء. رائحة الكراوية والقرفة التي جلبتها أمها الموسرة معها لم تكن تمحو علامات القرف عن وجوههن من الرائحة التي تملأ البيت. كانت ترغب في العنعنة أمام أهلها وأن تدّعي أن سكنى المدينة أفضل من الحراثة والعيش بين الغنم والبقر وأن تخبر أخواتها أشياء جميلة عن السكنى هنا، لكنها لم تستطع، لم تكن عينها وقحة لتنفض انكسارها وتظهره رضى، وكان الأصوات التي يصدرنها بأفواههن كلما فوجئن بأمر ما تجعلها تنكس رأسها أكثر، ولم تكن لتخبر أبي أنها تريد العودة إلى هناك.. كانت كلما نقح عليها الشوق، تكتفي بترداد ملاحظتها عن البندورة التي تستطيع تمييز طعمها من بين ألف حبة بندورة أخرى وأحياناً حين كان الكيل يفيض.. وخاصة في وجود أحد من أهلها، كانت تذكر الخيار الذي لا رائحة له والذي له طعم الماء، أو الماء الذي له طعم التراب، وكانت تأمل أن يتأثر أبي من ملاحظتها هذه ويقرر العودة. لكن أبي كان على النقيض تماماً.. كان بفضل الكتّاب الذي ذهب إليه قادراً على ترديد بيت شعر أو شطر منه "لا تسكن الأرياف إن رمت العلا " وكانت هذه قناعة راسخة لديه. كان يحس الوسادة مبللة حين يمد يده ليرى إن كانت اعتادت على الغربة أم ما زال يقلقها الحنين، كان يغص بدموعها التي لا يراها ويقبّل رأسها ظانّاً أنها نائمة. ورغم أنه كان لا يستسيغ الطعم الماسخ لكل شيء هنا، إلا أنه لم يكن يسمح لتعاطفه مع أمي ولا لحنينه أن يجعلاه يفكر في قراره مرة أخرى،كان لا يجد هنا إلا الابتعاد عن نجاسة الفلاّحين وكان هذا أكثر من كافٍ كما كان يقول، وحاول كثيراً أن يجعل أمي تفرح وأن لا تكره إقامتها هنا أو على الأقل أن لا تتعامل معها كمؤقت، لكنها لم تفعل. كانت تخبيء الأشياء الجديدة لترتديها أو لتستعملها حين نعود، كانت تؤجل الأشياء جميعاً وتضع الكثير من أشيائها في كراتين جاهزة للرحيل. بعض البقج لم تفضّها أصلاً مذ جاءت ولم تتعرف على أي جارة، كانت تخشى أن تتعلق بهن ثم تتركهن، كانت توفّر انكسار القلب. لم تشتر لنا فرشات إسفنج جديدة حين كبرت أجسادنا وصرنا نتشاجر طوال الليل، لأن فرشاتها الصوفية التي تركتها عند أختها ستكون أكثر من حاجتنا. أشياء كثيرة انكسرت أو ضاقت أو ضاعت لم تعوّضها، لتخفف عن أبي عند الرحيل، ولم ترمِ أشياء بيت قريتها، احتفظت بها كي لا تشتري غيرها حين تعود. حفظت القصص والطرف التي كان أبي يسليها بها كي تجد ما تخبر جاراتها وأخواتها به حين تعود. لم تكن حياتها سوى انتظار أدركت فجأة أنه طال وأنه لن يكون له نهاية، أصابها الوجوم لفترة طويلة وأخذت تنحل حتى صارت شبحاً. كنت صغيرة لكنني كنت أعرف ما انكسر فيها. حزنتْ طويلاً حتى نسيت ملامح قريتها وبهتت حمرة خديها العفيّين. وحين قبلت أن تنقل إلى بيت أوسع ووافقت على مضض أن يشتري لها أبي غسالة، لم نعد نذكر كيف كانت من قبل، كنا نعرف ما صارته بعد ذلك. كنا نعرف

أنها توقفت عن الانتظار والفرح وتلميحاتها البائسة بخصوص البندورة والخجل من رائحة بيتها.

حين أحستْ أن يداي كبرتا وصار بإمكانهما إمساك الكاسات المكسوة بالرغوة الملونة، سمحت لي بالجلي وسط غيرة إخوتي واعتراضاتهم النحيلة.

حين نكون صغاراً نصنّف الأشياء بطرق لا نعود نفهمها حين نكبر. كنت أعتبر تكليفي ببعض الأعمال المنزلية مدعاة للفخر، بينما البعض الآخر كان يسبب لي وصمة عار. واعتبرت -**بعد تفكير مرهق وموضوعي**- بعض الأعمال ولاّدياً و الآخر بنّاتياً. ولما كنت الأكبر بين إخوتي، ولم يتمكنوا -**لأن السؤال كان سيكشف عدم جدارتهم بأن أخبرهم بأمور الكبار الخطيرة**- من تحديد ما إذا كانت هذه التصنيفات أمراً خاصاً بي أم شيئاً ينتمي إلى عالم البالغين الذي يتعلقون بذيلي وأنا أقف على أعتابه، فقد اقتنعوا بهذه التصنيفات، بل وتبنّوها. وبالنظر إلى أننا نشكل الأغلبية العددية التي تنتمي إلى نفس البيت، فقد استطعنا تعميم هذه المقاييس على الحارة كلها. كنا نطلق الألقاب الحقيرة أو الفخورة تبعاً لهذه المنظومة. وحين تكون جميع أخواتي من البنات، كنا نتمسك بهذه التصنيفات ليمكننا أن نعتبر أنفسنا أولاداً ولو لبعض الوقت، ولنتخيل أننا نزيح النظرة المرعوبة عن وجه أمي، أم البنات، أو نزيح الذل الذي يشحب على وجهها.

كان الجلي يقع في أعلى سلم المهمات.. وكان بنّاتياً. شطف الغرفة ذات الأرضيه الصبّة كان له نفس القيمة وكان له حالتان، إذا تمّ بمكنسة القش القصيرة فهو بنّاتي، وإذا تمّ بالمكنسة الطويلة الخشبية فهو ولاّدي، أما التقشيط فقد كان ولاّدياً بوضوح، والتخلص من سطل الزبالة وإخراجه إلى المكان المتعارف عليه في الحارة كلها كان ولاّدياً كذلك. مسح الغبرة كان أمراً حقيراً، وتنشيف الغرفة بالممسحة المهترئة بعد التقشيط كان لا يقل حقارة عنه.

كان الجلي يشبه اللعب.. لذا لم أكن أستمتع به إلا حين تخرج أمي بعد أن أكذب عليها وأخبرها أن أم محمد تدعوها لشرب القهوة وأكون متأكدة أن أم محمد أرسلت ثلاثة من أبنائها منذ الصباح لإيصال هذه الرسالة لأمي ولم يصل منهم أحد.. أضع كرسياً أمام المجلى كي أستطيع إتمام مهمة الجلي بتعليق المجليّات على علاقة الجلي وليس وضعه بسذاجة على المجلى كما كانت أمي توصيني محاولة التخفيف عنيّ. كنت أقف على الكرسي أمام الأعين الحسودة لأخوتي أو أمام الأعين الوهمية النى أخلقها لترى فَخري، ثم أنسى هذه الأعين ما أن أبدأ في ترتيب الأشياء على المجلى تمهيداً لغسلها. وهذه العملية، الترتيب، كانت هي الأكثر استنزافاً لجهدي وعاطفتي، فقد كنت حريصة على احترام المقامات أثناء ترتيب

كاسات الشاي في صف حسب الطول، واحترام الأصول أثناء ترتيب كاسات الماء الحديدية والبلاستيكية حسب فخامة مادة الصنع، ومتعاطفة أبداً -**كان تعاطفي سابق على وعيي**- مع كل ما تلتصق به تاء التأنيث، فأترك للأشياء المذكّرة أن تتكوم بإهمال، ثم أعطي أفضل مساحة في المجلى لرفيقاتي في التأنيث، وأبعدهن عن الفوضى ثم أصنّفهن إلى فتيات صغيرات وأضع قرب كل صغيرة أمها المنتفخة ثم الجدّات النحيلات وأضعهن في المقدمة احتراماً لأقدميتهن. لكني كنت أحترم الجمال أيضاً، فكنت أقع بين نار تكريم طنجرة الألنيوم المبعوجة الضخمة بسبب تائها الصريحة التي لا لبس فيها وبين بشاعتها التي تقاوم إحساسي بالجمال -**وأضطر لاحتمالها لأسباب نظرية**-، وتجبرني -**كنوع من رد الفعل العكسي على شعوري ببشاعتها**- على أن أراها جميلة -**بتكذيبي حواسي**- وعلى التعامل معها بألطف من البقية حتى المدللات لدي. ثم صارت تجعلني أحاول صياغة نظرية مضادة للتعاطف الجنسوي -**وربما كان هذا هو بالضبط منشأ نص المرأة، إزالة الاشتباه عن اسم المرأة الذي تلتصق به كل تاء تأنيث بغض النظر عن استحقاقها، يا لدهشة خمسين امرأة سمعن جملتي هذه !**- تعتمد أساساً على مقياس أحوم حوله لأكتبه، إنه هناك، في مؤخرة رأسي، ينغلق عليه نخاعي الشوكي فلا أستطيع النطق به-**وهذا هو عجزي عن كتابة نص المرأة، إنني أحسه لكني لم أجد كلماته بعد**- ثم توقفتُ فجأة -**بفعل العمر الذي يقنعنا بامتلاك الصواب**- عن محاولاتي، وأبحت لنفسي -**العمر أيضاً، ومن ثم قساوة القلب**- اتخاذ قرار بنقل القطع المنغِّصة هذه إلى فئة المنبوذين دون نظرية تفسر ذلك، ثم وبعد فترة كنت -**بفعل الرغبة في التمرد**- أمنح للمنبوذين -**دون أن أحاول رؤية جمال مفترض، فقد كنت كبرت بما يكفي لتقبل القبح دون محاولة تغييره**- أن يسودوا فوق المساحات التي حرموا منها طويلاً. كنت أمنح للملاعق الصغيرة حناناً يشبه أمي حين كانت ما زالت في طور الانتظار -**آملة، دون أن أفكر بالكيفية، أن يقدّر الله لفتتي هذه ويحنّن خلقه عليّ**- كنت أجد مشكلة بسبب صغر مساحة المجلى وكثرة الجلي وأكره تكويم الأشياء وأحترم خصوصية -**لم أكن أملكها شخصياً**- كل قطعة وأكره خدش حيائها والاستخفاف بها. كانت هناك ملاعق أنفة -**بتلك الانطعاجة للخلف**- أو كاسة متميزة تعود لأحد الجيران أو حصلنا عليها بالصدفة أو صحن أحضرت به جدتي شيئاً لنا ونسيته -**القطع الغريبة التي ترد إلى البيت كانت تلقى حفاوتنا تجاه الغرباء، نهتم بها إلى أن تعتق وتزول دهشتها**-، جاطات زجاجية بألوان ناصعة، فكنت أعطي لكل قطعة قدرها الذي تستحق.كان هذا التقييم وهذه الأولويات هي ما يرهق جليي، ويؤخرني إلى أن يعلو صراخ أمي.

كل الأعمال التي يطرطش منها الماء كانت صديقتي. الشطف كان لعبتنا الجماعية المفضلة.. حين تنهدّ أمي من التعب.. وتنام -**وعلى وجهها تلك النظرة.. ماذا كانت تشبه؟ الانخذال؟**- كنا نعبيء السطل ونأخذه لغرفة الضيوف المائلة أرضيتها. لم يكن هناك كثير

من الأشياء لنرفعها، ليس بسبب الفقر -**ليس فقط**- بل لأن أمي كانت تعتبر الغرفة بمطوى الفراش الذي يشغل جانباً صغيراً منها وبفراغها الشاسع المتبقي، مكاناً لا يجوز لنا دخوله. مكان خاص بالغرباء الذين يحملون رائحة الأماكن البعيدة التي نسيتها. كانت الغرفة غريبة عنها، لم تكن لتدخلها أبداً وحين كانت تريد تنظيفها كانت تمنحني أنا و أخي شرف شطفها مخبئة نغمة كراهية تختبيء في صوتها -**هل كان غبار الغرباء يغطي عينيها أم يعلق على وجوهنا؟**-. وعند حضور الزوار كانت تدخلها لتفرش البساط الوحيد وفرشتي الصوف اللتين أحضرتهما متأخرة. كانت وهي تتحرك في الغرفة تبدو كالملسوعة،كأن فرناً يشتعل تحت الغرفة.. ولم تكن مضطرة للجلوس فيها لأن الزوار ينقسمون قسمين حتى لو كانوا من أهلها، الرجال في الغرفة الكئيبة والنساء عندنا في الغرفة التي ننام فيها.

كنا نسكب الماء على فرنها.. ونرش بعض السيرف بحجة التنظيف ليسهّل لنا التزحلق أكثر.. ثم نبدأ وحسب الدور بالزحلقة قطرياً.. وحين كان أحد الصغار يعتدي على النظام أو يخرّب زحلقة آخر.. كان الصراخ يتصاعد فنطردهم جميعاً خارج الغرفة ونبدأ بالشطف السريع والتقشيط مخافة أن ترى أمنا استمتاعنا بالغرفة التي تكرهها.. كنا نتذرع بجهلها بالغرفة ونخبرها أن القطة قد وسّخت فيها وأنها بحاجة للتنظيف، لم تكن بحاجة لإشعارنا باكتشافها كذبتنا، فقد كنا، نحن وهي، نعرف أنها بحاجة لاستهانتنا بالغرفة التي تثير ضيقها وخوفها. كنت أضطر لوضع المغريات لأخي ليسمح لي باستلام القشاطة باعتبارها من مهماته، كنت أعده أنني سأسمح له بجلي أربع صحون دون أن أخبر أحداً من أولاد الحارة أو أمي بذلك -كثيراً ما كنت أحتار، ما الذي يدفع الأولاد، ومن ثم الرجال إلى أن يرغبوا بفعل الأمور المصنفة نسائية، هل كان تمثيلنا للاستمتاع بها مقنعاً لهذا الحد، أم كانت ممتعة فعلاً -، ثم وبعد أن أستمتع باستخدام القشاطة، أنسلّ ببراءة خارج البيت وأوشوش أكثر الأولاد شماتة ولؤماً بخبر الصحون الأربعة، وبعد لحظات أبدأ بالتفتيش عن مخبأ لي منه، وكان لا يهدأ حتى يضربني، فإذا فعل كان لا بدّ أن أستدّ منه وأضربه، كانت هذه المعركة تستمر طوال اليوم ويحدث فيها انقسامات وتحالفات بين الصغار الذين يكون مطلوباً منهم تحديد انتمائهم إلى صفه أو صفي. بعد تشهيري به كان لا بد لأخي أن يردّ بتشهير مماثل، ادّعى التعب وأخبرني أنه بإمكاني حمل سطل الزبالة والاتجاه به إلى المكبّ -**الذي لم يكن غير كومة أخرى من الزبالة**- بينما يسير هو إلى جانبي، وبالطبع لم أحاول أن أظهر مقدار الفرح الذي غمرني والدهشة لهذا التصرف الكريم بعد تصرفي اللئيم معه، قبلت، وكان قلبي يخفق بشدة فرحاً، فهذه أول مرة سأصل فيها للمكب الذي أسمع عنه من أخي قصصاً لا تعد ولا تحصى، مشي إلى جانبي وهو يتظاهر بالتعب وبالارتخاء، ومشيت حاملة السطل مشدودة القامة ومعتزّة، كان أخي ما

زال أصغر من الانتباه إلى احتكارات الرجولة بكثير، أو أكثر براءة فلم يدرك أن تصرفه الأحمق هذا لم يكن ليلحق العار بي -**كما ظنّ وأراد**-، بل منحني درجة أرفع أمام أولاد -**وهذا هو الأهم**- وبنات الحارة، أنا التي أقوم بأعمال الكبار مثل الجلي، أقوم بأعمال الأولاد أيضاً، أي شهرة !!.. وأي غيرة أثرتها في قلوب الفتيات اللواتي يكبرنني.. وحين عدنا.. كانت أخبار هذا النصر العظيم قد سبقتني. بعد ذلك لم يحاول أخي الطلب مني الذهاب للمكبّ، ولأنني جرّبت مرة لذة هذا الابتعاد عن البيوت والمشي المتمهل باتجاه مضارب النور الذين كانوا يقيمون في خيامهم بعيداً عن المكب لكن بما يتيح لنا رؤيتهم، كان لا بدّ لي من اختراع سبب لأستطيع الذهاب مرة أخرى، لكن هذه المرة كنت أريد لرفيقات لعبي وقصصي أن يأتين معي كي يصدقن ما قلته لهن عن زيارتي السابقة، كل دعواتي أن يقع أخي وتنفكش قدمه -كنت حريصة في أدعيتي أن لا أثقلها كي لا تبكي أمي- كي أستطيع الحلول محله في هذه المهمة السامية، كل هذه الدعوات فشلت، لكن استيقاظي مرعوبة من النوم والبكاء طويلاً في حجر أمي المنشغلة عن كابوسي بآية الكرسي ورواية حلمي الشنيع لها والذي كنت فيه أرى أخي الوحيد يموت مختنقاً بأكوام الزبالة ولا أحد ينقذه، كان له أثر لم أتوقعه ولم أرده ولم أخطط له، أصرت أمي أن لا يذهب أخي للمكب مرة أخرى واستملت المهمة بنفسها، مما كان فشلاً ذريعاً لكوابيسي التي اجتهدت في إتقانها. وبما أن الزمن أفضل دواء للحماس، فقد ملّت أمي بعد فترة من هذا الانقطاع عن أعمال البيت وما يجرّه عليها من تعثّر بجاراتها وقصصهن، وسألتني بحذر إن كنت رأيت في حلمي بنتاً، ولما أكدت لها أن مجموعة أولاد الحارة فقط هي التي كانت هناك، وسميتهم بالاسم، فقد أجبرها ضميرها على تحذير أمهات الأولاد من حلمي، وحين طلبن حلاً منها، قالت أن البنات لا يمتن، وأن الأولاد هم المقصودون بلعنات الكوابيس، وهكذا، منع الأولاد من الاقتراب من المكبّ، وتحول إلى مشوارنا المسائي الرائع، نحمل سطولنا ونكبّها هناك، نبتعد قليلاً ثم نجلس عليها بعد أن نقلبها. كنا نصمت ونستمتع بالإحساس بخصوصية غير مسبوقة، لم يسنح لأي بنت منا أن تكون وحدها دون أعين الأم والأخوان، ودون شتائم حاثّة على باب الحمام. كان عددنا يمنحنا الشجاعة للتهور. ولما كانت هذه الخصوصية تستثيرنا لنفعل ما يستحقها فقد اجتهدنا في الأكاذيب، ثم في عرض صدورنا الصغيرة التي لم تبرز بعد، وقياس أيها أكبر، ثم في اختلاق القصص المفتقرة إلى الخيال، ثم بدأنا بالملل و أدركنا أننا لم نستطع الاستفادة من منحة الرب هذه، إلى أن جاءت تلك السمراء التنتونة التي لا يمكن الظن أنها تملك أي معرفة أكثر منا بأمور الكبار، وفاجأتنا بأنها سرقت عقب سيجارة من منفضة السجائر التي دخنها والدها. بالرغم من امتعاضي -**فقد كانت فكرة عبقرية كهذه يجدر بها أن تكون فكرتي**- فقد قررت أنه يجب أن نحصل على سيجارة كاملة لأن العقب كان لا طعم له ولم يكفنا جميعاً، جربنا عمل سجائر من عيدان الملوخية التي كنا نحمل بعضها لنرميه

إلى جانب المكب من اجل الأغنام التي تمر من هناك، ثم وبفضل أحد الأولاد المتآمرين، حصلنا على سيجارة كانت أول انتهاكنا للبراءة، تبعها وبسرعة فقدان كامل للبراءة المفترضة بنا عبر لقاءات المصادفة التي كانت تجمعنا بأولاد النور ذوي العيون الملونة وأسنان الذهب ثم بأولاد الحارات البعيدة الذين لم يكونوا يتشاءموا من أحلامنا.

كانت كذبتي بخصوص الكوابيس توجعني حين أتذكرها، لكني أغفرها حين أتذكر العمر الصغير الذي كان لا يعرف المفاولة أو التشاؤم، وفيما بعد، حين تعرّفنا على الحيل الأخرى التي تستعمل لإخفاء أخطاء أو رغبات أكبر، حين تعرفنا إلى الوحام كوسيلة لتحقيق رغبات أو إبعاد شبهات، وحين تعرفنا إلى التشاؤم كتبرير لمزاجية ما، حين تعرفنا إلى الحسد كنوع من إرضاء الذات وإعطائها قيمة لا تملكها، بدت لنا حيلنا الصغيرة بداية كل الشرور.

الرجل الذي يشبه ممثلي الأربعينيات في السينما المصرية، لكن بملامح مفرودة وناضحة، بقفاه العريضة وبدلته الوحيدة وعكّازته، كان هو الذي دمّر عالمنا الذي حصلنا عليه بذكائنا واحتيالنا. كنّا قبل ذلك نكرهه جميعاً. في البداية كنت أظن أنني الوحيدة التي أسمعه يتنخّع كل صباح، فأنكمش في فراشي بانتظار البصقة، ولم يخيبّني يوماً، كانت البصقة الصباحية هي استمرار الحياة دون مفاجآت واستمرار شعوري غير المُدرك بالقهر لأني أعيشها، ولأني هنا، يطل بيتي على الزاروبة الترابية التي يفتح عليها سبعة أبواب، كل باب عالم.. أسرار وأحقاد صغيرة وثارات دامية. البصقة كانت رمز الحياة التي لا أحب، الصباحات التي يرفش الصحو فيها رفشاً في بطني كي أترك النوم.

كنّا، في مللنا المفاجيء لنا من زياراتنا للمكبّ نخترع الأكاذيب ونرويها لنتسلّى، لكن الكذب كان بحاجة لخيال واسع ليكون ممتعاً، وأيضاً كان خطراً إن لم يرافقه الحذر. ولأن الفتيات في عمرنا ذاك يملن إلى تشكيل صداقات ملزِمة وتحالفات ثابتة، فقد كنّ ينتظرن أي زلّة ويقفن على دَقْرة لتكذيب الراوية وبالتالي استقطاب تحالفاتها، صار الخطر المحيق بالكذب مدعاة لنتذكّر أنه حرام وأن الله سوف يعاقبنا عليه بشدّة.

ما العمل إذن؟ صرنا نختار كل مرة شخصاً من الحارة نتحدث عنه، وبالطبع كنّا نغتنم غياب أي واحدة منّا ليكون الدور على أحد أفراد عائلتها، إلا إذا كنّا نتحدث عن أحد الأولاد من عمرنا، عن عصابته وعدد دواحله وزعامته، فقد كنا نهتم جداً أن تكون أخت الولد المعني حاضرة لتنقل له الحديث.

إحدى جلسات النميمة كانت حول الرجل ذو النخعة. اكتشفت أن جميع الفتيات يستيقظن وينتظرن ويقرفن مثلي، وحّدنا هذا الشعور غير القابل للاختلاف. ولسوء حظنا

كان هو بالذات الذي مرّ في سيارة جيش قرب المكبّ ورآنا ندخّن عيدان الملوخية. لم ترَ أي واحدة منا السيارة قبل أن تتوقف أمامنا وينزل منها بزعيقه الذي شرّدنا وأنسانا سطولنا.

وفي اليوم التالي اكتشفنا أننا جميعاً تذرّعنا بالمرض ولم نذهب للمكبّ، وأننا جميعاً فيما بعد بكينا أمام أمهاتنا ليعفيننا من هذه المهمة، وبالطبع كانت أسباب بكاءنا دلالة عميقة على شخصية كلّ واحدة منا كما حللّتُها فيما بعد عندما كبرنا. وتراوحت هذه الأسباب من الادّعاء أن أولاد النور يتحركشون بنا، إلى اتهام بقية الفتيات أنهنّ يقلن أشياء عن الأخريات حين يغبن، إلى البوح بأن جميع الفتيات دون صاحبة الادّعاء يذهبن لتدخين عيدان الملوخية، إلى الثورة على الظلم المحيق بالفتاة المعترضة التي احتملت هذا المشوار المضني فترة طويلة وآن لها أن ترتاح، إلى محاولة رشوة أحد الأخوة أو الأخوات ليستلم هذه المهمة. وهكذا نشأ جيل جديد من حاملات السطول إلى المكبّ.

في السادسة والعشرين تماماً.. أكون شجرة. أقف هناك، على الرصيف المبلول الذي يمر بموازاته الرجل الذي لا يرتدي ملابس دافئة كل يوم. الرجل الخمسيني الذي يدفع كرسيّ عجلات يحمل بنتاً صغيرة تحتضن حقيبتها المدرسية، وتهرول وراءهما الأم المخذولة تلملم آلام زوجها المتناثرة خلفه مثل الغبار.

إنني هناك، شجرة عارية من كل شيء، شجرة شتوية، تتألق نقاط الماء المتكورة على أطراف أغصاني، أقف فارغة من كل شيء، ثماري كرات ماء عالقة على أطراف أصابعي، براعمي كرات ماء سريعة الموت، ما أن تتشكل حتى يُثقلها الهمّ فتسقط، ثماري سريعة الالتحام مع الهباء، إنها تسقط فتصير جزءاً من الرصيف الذي يمتد تحتي ببلاطاته المخلّعة المخادعة التي تجمّع الماء بانتظار قدم مسرعة فتنرشق للأعلى صاخبة.

في السادسة والعشرين تماماً.. أكون شجرة، بساق عالية -**لا لشيء إلا للدلالة على العمر الفارغ الذي جمّعته**- وهناك في الأعلى بعض غصوني النحيلة السوداء كما لو من مخلفات حريق، تحمل قطرات الماء الشفافة، كرات صغيرة فضية، وحين تمر الفتاة على كرسيّ العجلات بخديّها المشتعلين شوقاً للركض، كانت كراتي تصير حمراء. وحين أفكر في عمري، تسقط الكرات عني، وتلتحم بالمياة المتجمعة تحت البلاطة، أو تلتحم بمياه الشارع الوسخة.

في السابعة والعشرين.. فرّ الربيع مني. ما احتفظت منه بزهرة دحنون. لباليب اللوز في كتبي ليست من شجر هذا العام.

أية أهمية لسنة كاملة؟ لم أنتبه لهذه التي مرّت. أنا.. أكثر من يحسّ بالسنوات تنسحب من أورِدتي، هل كنت سعيدة أبداً؟ متى؟

في السابعة والعشرين أكون غرفة، غرفة باردة وفقيرة، غرفة فتاة تستهلكها ساعات العمل العشر ويلقيها البكاء على السرير الذي يستلقي هناك في زاويتي اليسرى إلى جوار الباب. كنت صموتة كي أسمع بكاء البنت التي لا يحبها أحد. كانت الفتاة تكرهني، تكره كل شيء فيّ ولا تعرف. كنت أستمع للشجارات تنشب بينها وبين سريرها، بينها وبين الحنفية التي لها صوت كركعة معدة، فأشفق عليها. أشفق على وحدتها وحزنها وحديثها الصاخب مع نفسها. أشفق على عينيها من المصباح الذي تتركه مضاءاً كي لا تخاف. تحزنني حين ترصف أزواج أحذيتها الكثيرة لصق جدراني كأنما لتحتال على الفراغ الذي يُشعرها بالوحشة.

كانت تجلس ممسكة بكتاب فلا تقرأ شيئاً فيه. تنظر إلى الياسمينات المبلولات المعلقات على بوابة خزانتي الباهتة، وتتحدث مع صاحب الوجه الطويل ذي التعابير البليدة الذي ألقى الياسمينات وهرب، كانت ترتّب الكلمات التي سوف تشجّعه على الحديث معها. ثم تفكر في البنت التي تذهب للمدرسة على كرسي العجلات وتقول أنها تستعجل صباح الغد لتتوقف أمامها وتقول لها أنها شجاعة ثم تهديها ماءاً وسمكة حمراء.

كنت أعرف أن الصباح سيجعلها تشيح بوجهها عن صاحب الوجه الطويل ولا تعود قادرة على رؤيته. وأعرف أن الصباح سيوقفها أمام الكرسي الذي يمرّ من أمامها عاجزة عن التفوّه بكلمة، لم يكن لديها سمكة حمراء حتى. وأعرف أنها ستظل كذلك إلى أن تبدأ بإدارة ظهرها لكرسي العجلات حين تراه قادماً من بعيد كأنما هي غاضبة من الصغيرة.

أستعجل خلاصها من هذا العذاب اليوميّ فأرسلها لنومها ثم ألملم خطاياها وراءها كي لا يغضب الله منها وهي تكيل شتائمها لكل شيء.

وهجٌ قوي يأتي من نافذتي المسدل عليها أكثر الستائر كثافة وغموضا. تستيقظ أذناي أولاً على صوت مزراب – ليس ثمة مزاريب هنا.. إذن.. ماذا؟

الشتاء الأول؟ أهذا هو؟ أول الشتاء يشبه أول الصيف.. تفوح رائحة الحيادية المضيِّعة، يتردد فرح غريب بين الإعلان عن وجوده وبين التعقل وانتظار اليقين.

لها، أهدي صباحاً شتائياً. لها يوجعني وجعها وأنتشي بلذّته. لها، مجد القدرة على الرغبة دونما حب، مجد البشاعة التي لم يسبقها ما يبررها من العمر ولا من الحب.

لكن ها هو.. مطر يرتطم بشبّاكي.. تمطر.. تمطر. فيمَ إذن كل هذا الضوء؟ أعود للإغماض، أتجاهل إيقاظ الفتاة رغم أني أعرف أنها ستفرح، ستستيقظ بعد قليل وحدها على أية حال.

حين تفتح عينيها تتساءل عن هذه العتمة وتضيء النور، أتذكر الشتاء وأحس كأنني كنت أكذب، أين ذهبت كل تلك الأشعة والشمس؟ ماذا أقول لها؟ تزيح الستائر فيبدو الصباح معتماً ومستكيناً مثل أي صباح شتائي موغل في البرد دونما تحدّيه الوقح الذي وحدي من رآه قبل قليل.

عائدة لزاويتي الصغيرة، لغرفتي، الغير مملوءة بسوى الأحذية، لوحدتي. ليس هذا تذمراً. كنت أحب غرفتي وأكتم ألم عدم انتمائي لبيت ما حتى لا أحزنها، كنت أرغب أن أعود.. والأهم من أن أعود أن أخرج من بيت. إن له معنى كبيراً الخروج من بيت، بيت به أطفال صغار نائمون وأوعية قذرة متكومة على طاولة المطبخ، بيت فيه مطبخ. وأن أتعثر بين الشتيمة الصباحية والغفران الفوريّ بلعبة مرمية على الأرض.. أرض البيت. لكني لم أكن أقول هذا لغرفتي التي تشبهني في أن ألمي وألمها واضحين، كان الألم يشع من عينيّ ومن ستائرها الخمرية. اللون الخمري في الستائر هذه بالذات كان مثل أمر مضى وقته، مثل امرأة جميلة كان لها عزّ وما عاد.

أماكني تشبهني، خاوية من التفاصيل، مغبرة وعتيقة. تلتصق الأشياء فيها فلا تتغير بعد.

في طريقي إليها تذكرت البنت البشعة، التي قالت كمن يسأل محاولاً الاطمئنان إلى لا شذوذه عن العالم، أنها تختلف في الليل، لا تعود هي نفسها. ثم سألتني إن كنت أشبهها في ذلك. وأنا لم أجب.

لكن منذ تلك الليلة، انتبهت إلى أنني في الليل كنت لا أشبه نهاري، كنت أطيب وكان يمكنني أن أحب حتى الأشخاص الذين لا أعرفهم دون خوف. كيف كنت أحتمل الليل بعد فضائحي الصغيرة التي ينشرها النهار ؟ كل ليل.. كل ليل، أضع رأسي على المخدة التي تحترق حين أخبيء – بحكم العادة – تحتها سيجارتي المطفأة في منديل ورقي، وأظل ساعات طوال أرى الناس أجمل مما كانوا في النهار، وأكون أنا أنقى وأطيب.

ثم يبزغ النهار بوقاحته المستفزة، فأزيح كل ما فكرت به ليلاً، أحاول أن لا أتذكره أمام ضوء النهار كي لا أخجل، لكن ضوء النهار يلقطني فلا أستطيع التهرب منه بعد، وتتجلى سذاجتي واندفاعي وحماقتي في الحلول والتحليلات التي كانت عبقرية طوال الليل، وأتساءل عن السبب في هذا الحقد الذي ينغل في صدر النهار على الليل.

أنام.. فأجد ابتسامتك في الصحو لا تشبه ابتسامتك في حلمي. ابتسامتك في حلمي تعذبني أو بدقة أكبر، تربكني. كنتَ أقرب منك إليّ.. وأَلَف. أحتار فيك. لا يغادرني حلمي.. ولا تفهم عليّ. لا يغادرني مسّك الشفيف لي فأستعجل صحوي. أستعجل طاولتي.. أشيائي، أردتُ كتابة شيء كتأريخ للحظة منفردة، تأريخ متأخر للحظة متفرّدة، لم أستطع. فاللحظة، التي لا أستطيع خيانتها بتهذيب أظافرها، ولا أستطيع قولها من انخناقي، أدركتْ أنني أحاول الالتفاف عليها فأضاعت نصّها.

أصحو وسط سكون مفاجيء، وحياة يبدو أنها تتمهل وتقلّل قليلاً من صخبها أو اندفاعها. أحس كأن لهذا الصباح مذاق العسل. ليس يهمّني إن كان الوصف ساذجاً. كان هناك شيء لم أستطع وصفه.. الآن أقبض عليه بيديّ الاثنتين، صباح له مذاق العسل، عذب وناعس، لا ذكريات قريبة.. بلا ذاكرة أبداً.

في الباص، أفتح النافذة فيلفحني هواء يغازله البرد. ثم وسط اندهاش الجميع إلاّي. تكبس، أرسل ابتسامة متواطئة إلى السماء. وعلى مدخل البناية، أسحب الشريط الذي يعقص شعري وأتمهل في دخولي لأترك للمطر أن يعبث بشعري.

نص المرأة.. كيف؟

إن امرأة تعبر الشارع، بشموخ أو دونه، لا يعلق بي شيئاً من مظهرها، تجرّ عيناي وراءها، يكون بها شيئاً من امرأة نصي.

وامرأة النص لا وصف لها، إنما أعرف أشياءها حين أراها. أرى التعبير المرتسم على وجه الجسد الذي طارت تنورته، أرى العينين تنظران إلى الشعرة البيضاء الوقحة، أرى الهدوء البطيء في لفظ الكلمة، أرى الدلال في إدراك القيمة، وأرى الحساسية التي لا تغطيها لا البدائية ولا الغرور. لا يلغيها سوى الهرولة.

النساء اللواتي كان لا مكان لهن في نصي كن واضحات جداً.. إنهن الحريصات على أي شيء.

النساء اللواتي يلحقهن نصي.. أكبر من العالم. كن يحتوينه، بهدوء، دون استعجال.

على مكتبي الجامد أجد دعوة وصلتني من نادٍ نسائي -**كم أرغب الآن في تذكّر الكذبة التي استخدمتها لإقناعهن أنني أنتمي لهن. لا بد أنني كنت لحظتها على استعداد عالٍ**

للفكاهة لأستطيع أن لا أبدو ككاذبة– لحضور محاضرة عن موضوع لا يهمني أبداً، لا شيء يشجعني على حضورها سوى الهرب من ساعات الدوام. قبل الموعد بقليل، أقوم عن مكتبي وأخرج دون معطفي الثقيل فيظن الآخرون أنني ذاهبة للحمّام، أنزل مسرعة وأذهب لغرفة التجارة في الشارع الصاعد من أمام البنك العربي، يلتمع الزجاج في عينيّ، أدخل المبنى ثم أذهب إلى حيث سبقنني في الحضور. أحاول أن أُدفيء يدي لأستطيع الكتابة، ثم أملأ فنجاني بالنسكافيه الحامضة وأدخل القاعة التي تنفرش المقاعد فيها على شكل حلقة تحيط بمنصة المحاضر، يكن جالسات في المقاعد الأمامية، الصفين الأماميين يمتلآن على امتداد الحلقة، أجلس في الخلف، أترك بيني وبينهن المسافة التي تفصل بيننا فعلاً وأجلس.

يلقي الدكتور أومليل تحيته : صباح جميل لهذه الوجوه الطيبة. أفكر.. أي صباح يبدأ بتحية بهذا الطول؟ تأخذني جملته لأفكر بها بينما يبدأ هو محاضرته. لمَ لم يقل صباحٌ طيب لهذه الوجوه الجميلة، أراد أن يقول ذلك لكنه بدّل مواقع الطيبة والجمال ليبدو هو نفسه أكثر وقاراً.. ربما.

المنظر من الخلف رائع، من موقعي في الوسط كنت أرى مؤخرة رؤوس بعضهن، والبروفيل الأيمن للبعض والأيسر للبعض الآخر. وكنت أرى وجه اللواتي يحطن بالرجل الوحيد في القاعة، المحاضر.

أجلس خلف النساء الخمسين، غالبيتهن فوق الأربعين، أحدّق بشعورهن القصيرة –**غالباً**–، ما علاقة الطبقة بطول الشعر؟ ما علاقتها باللون؟ إنهن يلجأن لقصّ شعورهن كي يضفين مظهر الانتعاش، الأسود الفاحم الناعم، الأحمر، إنهم يصبغن شعورهن بالأحمر الكستنائي كي يبدين شبقات، يختفي هنا الأشقر الأوكسجيني، ذلك الصَفار المبتذل الذي تعبر به الفتاة وعلكتها وسط البلد متمهلّة فتتعلق بها مزامير العراقيين ومئات العيون الناعسة والمتكئة على جدران مكتبة أمانة العاصمة.

أحدّق أكثر فأرى.. المرأة تلجأ للّون كي يطمئنها. للأحمر كي يذكروا شبابها. يضعن قليلاً من الحمرة على رؤوس أنوفهن ليصبحن لبؤات على أهبة الانقضاض. المرأة الخمسينية، المرأة التي تجلس على المنصة، ما الذي يدفعها لوضع كل هذه القلائد حول عنقها، ما الذي يوقفها كل هذا الوقت أمام المرآة. ترسم بعناية لون شفتيها على جلد مترهل، ثنايا رقبتها متغضنة. كنت سأحب هذه العناية لو أن مكاناً آخر جمعني بها، كما أحب أن تمسح جدّتي كندرتها السوداء اللامعة قبل أن تخرج، وكما أحب أن لا تقبل جارتنا، تلك الأرملة المقدسية، أن تستجيب إلى طرقنا على بابها قبل أن تسرّح شعرها وترتدي ملابس لائقة. لكن هنا.. قلت لهن، إنهن يحطن المرأة بالالتباس، والنص الذي ظننت أن تواجدي وسط عدد هائل من نساء مختلفات سيساعدني في إتمامه، صار يبدو مهدّداً.

ما الذي يدفع النساء للتحاور ؟ أي سؤال مناسب في هذه الأجواء؟! أولئك النساء كن مجنونات إلا استثناءاً، هذه نتيجة أقترفها في مقعدي خلفهن. المرأة مع المرأة لا تشبه نفسها، إنها أي شيء آخر غير ذاتها، المرأة بطبيعتها غير طبيعية. وليس هناك جدّ في الموضوع برمّته. المرأة تتحدث سؤالاً ولا تسأله، تنشغل بالبحث عن صوتها المقبل الذي سيتحدث، إنها تصطنع كثيراً وترتبط بالثنيات الكثيرة من الثياب وبالألوان الشائعة.

أتوقف عن القدرة على الاستمرار، أعود لقوقعتي في العمل، ذلك أفضل.

أقرأ ما كتبت في المدرج، كلا، ليس ذلك مناسباً لنصّ المرأة، إنه انتقاص لا أسمح به، ليست هذه المرأة.

أردت كثيراً أن تأخذ عمان من الأماكن التي أحببتها شيئاً، أن تشبه ما أحبه من الأماكن الأخرى، حاولت أن أجعلها تتعلم كيف ولم أفلح في ذلك. قلت لها أن تشبه إربد. طار سؤالها قبل أن تشيح عني بمراهقتها المستعجلة.. كيف..؟

أنا لا أدري كيف.. أعرف أن هناك ما أحبه في إربد، ولا أعرفه. لكنني أعرف أن إربد مثل.. مثل ثلاث نساء خمسينيات، تجمعهن الطيبة والعمر الذي بدأ يصير مفرحاً، يحنين رؤوسهن على صوف زاهٍ، ويسرعن كي يسبقن البرد إلى أجساد أحفادهن، يتشاركن الهموم ويتبادلن النصائح المتأخرة.

إربد.. مثل أخوات كثيرات في عمر مقارب، أنهين أعمال بيتهن كما اللَعِب، أرسلن أمهن للنميمة الطيبة مع جاراتها والصوف، وجلسن على سور البرندة، تعابث ضحكاتهن غير المكتومة الشاب الصغير المحمرّ حرجاً، المار من شارعهن العابق بالياسمين المتدلي عن الأسوار.

وإربد مثل ولد واقف على برندة بيت، يرى رأس صبية صغيرة مطرقاً على نافذة تقابله فيوجعه قلبه. وتكون الصبية، التي تنتظر القهوة أن تفور تسند رأسها إلى النافذة و تفكر في اللون الذي يليق أكثر بعينيها، وبالسبب الذي جعل أختيها ترشيانها بوردة جورية لتتركهما وحدهما على عتبة البيت وتذهب لغلي القهوة.

مثل صبيتين متمهلتين، تجلسان على العتبة المشطوفة الباردة للدار العتيقة، تعلّقان الشمس التي تريد الغروب، حتى تنتهيا من أسرارهما التي يجب أن لا تقال داخل البيوت.. هكذا إربد.

قالت أنها لا تحبه هذا الترف، هذا الاسترخاء الصباحي، هاته النسوة الرخوات في بيوت عتيقة تنظَّف باستمرار، هذا الزمن المتمهل.

-ربما تشبهين الزرقاء؟.. إن استطعتِ؟

-لا أستطيع.. لا أحب الأماكن الفقيرة والقذرة.

-لكن الزرقاء.. إنها مثلنا، إنها مثل أن نذهب نحن، ربما للحج، فيخرج الجميع.. الصغار والكبار، والمرأة التي زعقت لأن سكوتر أخي اصطدم بسطل زبالتها المنتصب على باب بيتها، وأولاد الجيران الذين تقاتلنا معهم على الدواحل منذ فترة قصيرة، الجميع، الرجال والنساء، البنات اللواتي كن يخشين أمي ويغوين إخوتي، والأولاد الذين يكرهون جدي ويرسلون لأخواتي الرسائل مع أخواتهم، أصدقاؤنا ومن ظننّاهم كذلك. الجميع، يقفون على ذلك الانحدار الترابي البسيط، ويلوّحوا لنا بأيديهم، الفتيات بمناديلهن التي سنحت الفرصة لشلحها، إحدى الجارات ترشّ علينا ملحاً ورزاً مثلما في عرس، والجميع يبكي، نحن وهم، الذاهبون والباقون، كانت تبدو مثل تظاهرة للوفاء -**من الذي يظلّ يستخدم الكلمات حتى تخلص أو تبشع، تظاهرة للوفاء، إنني أعني ذلك لكن الجملة مستهلكة ومهترئة**-.

لكن عمان، لم تشبه أحداً سواها، كانت صبية تتغاوى بشعرها الأصفر المصبوغ، وتكشر حتى لا يرى أحد أسنانها السوداء المنخورة.

أتصرمح في رغدان عبر طريقي إلى الزرقاء، أفكر في شارع السعادة، أحس تجاهه كما لو أنني ابنته الكبرى، ابنته التي تزوجت غريباً وغابت في غموض الغريب. ألم أكن كذلك؟

لا، شعوري يشبه ذلك لكنه أعمق قليلاً، كأني ابنته التي صارت غريبة، كأنني زوجة رجل لا يعرفه، الشارع لا يعرف الرجل، والزرقاء صغيرة. أفكر أنني سأصل بسهولة للمجّمع الجديد البشع وسأعبر الطريق المضحك المسقوف بالزينكو، كنت غاضبة من باص القرشين الذي يصل المجمع القديم بالجديد -**هل كنت أدافع عن زرقائي كما أحببتها؟**- سأصل شارع السعادة مشياً إلى غرفة جدّتي. الزرقاء صغيرة وإربد صغيرة، أستطيع أن أمسح وجهيهما دون تعب أو ملل.

لماذا حين نحب الأشياء نظن أننا نحتويها؟ هل نحن تجاه الأشخاص كذلك؟ لماذا في عمان لا أستطيع المشي؟ ولا أحتويها. عمّان أكبر مني، سرفيسها ليس لي.

في شارع السعادة اكتشفت أنني غاضبة من الزرقاء، بالأحرى مَخزّية، ليس من الزرقاء بل من بلديّتها. كيف استطاعوا أن لا يروا الذلّ الذي يحني رؤوس العجائز العراقيات، مقتعدات الأرصفة المجلّدة، بائعات السجائر والبلح، وهم يجبون أتاوة العشرة دنانير منهن! ألم يكتشفوا أنه بين كل هاته النسوة البائسات لم تكن هناك متسوّلة واحدة؟ كان الخزي يجلّلني وأنا أحاول أن لا أراهنّ، كنت أريد أن أقول لهن أننا لسنا بهذه الدناءة.. فلم أستطع.

ولا أجد غير إربد.. حبيبة.. شرط ابتعادها، ولا أطمح في أرض أخرى.. يكفيني ما لا أستطيع حبه.

اربد وألوانها.. السهول الباذخة قبل مخيم الحصن، الامتداد الحنون بلا حواف كاستدارة نهد في كفٍ عاشق..كان جمال الأرض يجرحني.

لو أستطيع أن أحفرها في قلبي هذه المشاهد، لو أطبعها على شبكية العين وأسترجعها كلما أردت، لكنني لا أستطيع، لذا أصاب بالحزن.كلما شاهدت أرضاً جميلة اقتربتُ من البكاء لأني لا أستطيع أن أبقيها معي ولأني أنسى كثيراً، أنسى حتى أرضي الجميلة. كانت هذه السهول كلها أرضي وكانت إربد غرفتي.. غرفتي تماماً لا أوسع. كانت تتمطى فيّ حين تفرد ذراعيها وتبسطهما، وحين يندفع صدرها للأمام أتنفس أنا.كلما تركتها وعدت إليها أتفقد ما فعلوه بها في غيابي وجدت حسرات جديدة. الأرض الأوسع.. الأرض الأجمل.. الأرض الأخضر، تصير كازيّة وصالة أعراس ومطاعم خاوية، تكثر وتكثر كل يوم، تبرز فجأة.. بسرعة.. ولا شيء بيديّ أمسح وجهها به. لا أملك غير دموعي أبلل بها وجه اربد الموشك على الغياب، وجهها الذي أعرفه أنا.. هل يبقى فيها ما ينبئني بالربيع إن حضر؟ أم تصبح مثل عمان.. اندلالنا على فصولها مستحيل..

ماذا يبكيني في إربد؟ الربيع الذي يدفش حواف الشوارع ليقول ها أنا.. دود الربيع البطيء بألوانه البرتقالية والسوداء.. وجوه طالبات الجامعة التي تصغر وتصغر حتى تصبح محض طفولة بساقين طويلتين.

أيأس من شمس حارة تخترق العظم.. تنعكس على قلبي، أيأس من ألوان لا تنتظر عودتي، ومن نساء سوداوات بجلاليب حمراء وبرتقالية يفعلن ما لا أستطيع أن أراه في الأرض، يبذرنها.. يعلمنها خصبهن، أو ابتسامة أسنانهن البيض الجميلة. لإربد فيّ أكثر من حصة، وأكثر من عشق، وللزرقاء عشق واحد وقديم. عمان لا أعشق شيئاً فيها ولا أغادرها.

كل الأماكن التي أحببتها علقت غصة في حلقي، لأني أصغر منها، أصغر من تذكرها وأصغر من احتمال حزنها.. تبدو الأشياء الجميلة حزينة دوماً.

قلبي المولع بالانتحابات السابقة على الضياع، يمارس طقوسه في المقاعد الوثيرة نسبياً لباصات حجازي الصارمة نسبياً.

واقفة أمام قاعة انتظار حجازي في عمان، الشمس حارقة والدخان الأسود كثير. أنظف أنفي بين الفينة والأخرى فأجد السواد يتسلل إلى رئتي، وأصوات الصراخ والبيع والمشاجرات والاحتكاكات المتعمدة للداخلين والخارجين من القاعة، والاكتظاظ الهائل على بابها وانتظار وصول أي باص لأعرف سائقه وأحاول استخدام ابتسامتي المتعرفة إليه عله يحاول إيجاد مكان لي، أو أحاول إثارة شفقته عليّ حين يكون شكلي لا يساعدني في اختراق قرفه. يصعد ركاب الساعة الثانية، يصعدون جميعاً، أحاول أن آمل.. أفشل.. أنتظر بحقد انطلاقه ليأتي الذي بعده والذي بعده.. علّ موعدي يحين.. تشغر بعض المقاعد في القاعة.. أدخل.. العيون تتجه إليّ.. أكسو وجهي تعابير القرف.. وأفتش بعينيّ عن أفضل الأماكن الشاغرة أو أقربها.. تبعاً لنفسيتي.. أجلس.. أكتشف أن المكان الأفضل الذي اخترته هو ما تركه الآخرون.. المقعد الذي بجانب الاسطوانة المعدنية المخصصة للقمامة.. ذباب يبرطع، رائحة بقايا ساندويشات سنيورة طبختها الشمس تفوح في المكان.. طرطشة من علب البيبسي والكوكا كولا والشنينة وربما شيء من فوطة رضيع استثنائي النظافة والصراخ.. كل هذه البقايا تصيب – وربما تسيل على أو تلتصق بـ – قدمي المحشرة قسراً جانب اسطوانة القمامة لتفادى البديل الآخر وهو الالتصاق بقدم الرجل المجاور وما قد يجرّه ذلك من فهم خاطيء.. مخاطرة حين يكون الرجل مسناً.. أو برفقة زوجته.. أو متحركشاً.

يسيل العرق من إبطي، أحس مسيره البارد على امتداد المنطقة الأبرد من باطن الذراع، يصل الكوع المثني، ينقِّط منه بصورة مضحكة، أجفّفه بمنديل ورقي مهتريء. يغطيني ظلّ، أرفع وجهي فأراه.. طفلٌ طويل.. أكثر مما ينبغي للأطفال، يمد يده أمام أنفي تماماً ويرسم تعابير بلهاء على وجهه، ولا أستطيع أن أميّز هل هو مجنون فعلاً أم يدّعي

ذلك.. أتجمد، ولا أخاطر بمحاولة القيام، ذلك أن وجهي يكاد يلامس خصره والمقعدين على جانبيّ مشغولين، مما يعني أن وقوفي مستحيل، كذلك لم أجرؤ على فتح حقيبتي لأخرج منها ما يمكنني من صرفه بعيداً عني، كي لا يمكنه أن يفاجئني بأي حركة متعذراً بجنونه. يطول وقوفه ويطول نظري المذعور إليه -من الذي كان يبدو بهذا القدر من البلاهة، ألم أكن أنا؟ ألم تكن تلك نظرتي التي ترتجف حوله ولا تراه -. كان اختلاس نظرة إلى عينيه أمراً في غاية الصعوبة، فقد كنت جالسة وهو واقف، وكنت قصيرة وهو طويل جداً ويقف أمامي مباشرة، بحيث أنني لو حاولت رفع رأسي إلى عينيه لبدوت كمن ينظر إلى السقف، ولم يكن مظهري وارتباكي بحاجة لمزيد من الغباء، لم أستطع الإشاحة بوجهي عنه، فكنت أبدو كمن يتأمل بتمعن في الحزام المهترىء الذي يلف به وسطه أو كأني أنظر إلى ما تحت وسطه الذي يكاد يلتصق بوجهي، وكان هذا يزيد في ارتباكي. هل قام أحد من ركاب حجازي وأخذه من يده وأبعده عني؟ هل نهره أحد ليخفف من تشنّج رقبتي؟ هذا هو الفرق بين حجازي وبين باصات الكوستر. كانت الكوسترات هنا هي نحن، وكان حجازي هو الآخرين الأغنياء، المخيفين، الباردين، عديمي الفضول والتدخل، الذين لا تنقح عليهم رجولتهم في موقف كهذا. كانوا ينظرون إليّ ثم إلى الولد، هكذا، ببرود، وحين انحنى على الجزمة الممزقة التي كان يرتديها وخلعها من قدمه كان يثبت عينيه في عينيّ **-مثلما يفعل البطل في فلم أمريكي وهو يسحب تلك القطعة من الحديد في مسدسه ببطء وحذق فيتّك تلك التكّة التي تسبق الانفجار-**، نشف دمي وريقي خوفاً من جزمته وعينيه، وفيما كان يقلبها ويدلق ما فيها من حجارة صغيرة، كانت عيناه تستنكراني، بينما هو يتمتم بشتائم بذيئة على الناس التي أعطاها الله ولم تعطِ أحداً. أنا؟ هل كان يهزأ بي؟ أنا أعطاني الله؟ ماذا أعطاني؟ هل أبدو أنا دون كل هؤلاء البشر كمن أعطاهم الله؟. بدأ تعليقي اللاذع يحرق لساني، كنت أنا أول المسخور منهم، كان الهزء مني ومن العالم يشردق ضحكتي، ورغم ذلك تفهمت استنكاره، إنه إينشتاين مرة أخرى، كنتُ بالنسبة لهذا الولد معطاةً ومعطاة كثيراً كي أتمكن أن أدفع ٨٧ قرشاً ونصف **-أي دقة**ّ- ثمناً للانتقال من هنا إلى هناك، لم يكن يفهم مبرر إنفاق هذا المبلغ في ساعة وخمس دقائق، فكان الله قد أعطاني كثيراً من وجهة نظره، وكان الله قد أعطى مديري الكثير من وجهة نظري، لم أكن أفهم أن تكون أجرة بيته الشهرية خمسة آلاف دينار، كانت تلك الأجرة كفراً، وأن يعطيني ذلك الراتب؟ كنت سأبصق في وجه مديري لو أني أملك جنون هذا الولد ولم أكن لأكتفي بالبربرة الحاقدة مثلما فعل. كنت أفهم الولد جداً لإنني مثله، كنت أفكر كثيراً في هؤلاء الأغنياء، ما الذي يفرق مع مديري مثلاً أن يكون راتبي مئة دينار أو ثمانين.. أو حتى مئة وثمانين. هل تفرق معه الأربعين دينار.. أو المئة وأربعين.. ما الحكمة إذن؟ كيف يفكرّون.. تقتلني الرغبة في معرفة كيف يفكرون. ربما كان يريد أن أظل فقيرة ومسحوقة ليستمتع

بهذا التنوع الطبقي من حوله، لكن.. هذا الذي يدّعي الهبل ليُظهر بلاهتي في أقصى تجلياتها، يبدو أن إخافتي كانت متعته التي يخالطها استنكاره، بينما أنا.. لم أكن أستمتع بشيء.. ولم أكن أستنكر ولم أكن أجرؤ أن أقول أنني أفكر مثلما يفكر هذا الولد وأخته.. هل كانت أخته فعلاً؟. بالنسبة لنا – نحن الذين لا نشحذ، ولا نجرؤ على أفعال من يفعلون – كان كل شيء في عالمهم مشكوك به، وسواء كانت أخته أم لم تكن، فقد كان لها طريقة في النظر في العينين مباشرة بصورة مرعبة. ليست نظرة جنون.. بل نظرة اتهام. كانت ببنطلونها الأزرق سابقاً تحت الفسطان الزهري الكالح، وبذلك الإيشارب الملتصق بالشعر الملبّد، تقترب من الوقوف في الطابور، تترك الشاب واقفاً أو مستغرقاً في تفكيره وتلتصق به محاولة تقبيل يده.. أو معطفه، واختياراتها متنوعة حسب الزمن.. ففي بداية الشهر تقترب من الشبان النظيفين، المكوية قمصانهم، المرتدين جوارب شفافة، والذين يصيبهم القرف إن اقتربت منهم، وتغمز لكنترولية الباصات بعد الحصول على غنيمتها وتنفجر بالضحك من هؤلاء الناعمين. أما في آخر الشهر. فهي تتجول مثل ذئبة جائعة.. تراها نازلة من باص فارغ على مسافة من المجمّع، أو خارجة من حلقة من سوّاقي الكوسترات.. عيناها ملتمعتان.. وشعرها مهوّش. وكان يذهلني دوماً حصولها على مشابك شعر أو بروشات نحاسية أو قميص لو تخيلت حالته الأولية لأمكنك رؤية أنه جميل، لكنها دوماً تكون حزينة، بوجهها البشع وعينيها المتهمِتين. كنت أحس أني مسؤولة عنها.. لذا كنت أحاول ألا تقع عيناي عليها.. وكنت أتساءل عن الأخريات.. هل كن يخفن منها مثلما أفعل أنا؟ وفي الجانب المقابل، هل كنت أنا أخيف الآخرين؟ هل ينظر مديري إليّ هكذا؟ هل تنظر الفتيات اللواتي يلبسن البَدِي الحفر دون تحفظ بحركتهن التي تظهر الشعر الأسود القصير تحت الإبط، إليّ كما أنظر أنا لهذه الفتاة؟ هل تكون نظراتي إليهن مرعبة؟ لا أتحدث عن الحقد الطبقي، ليس الأمر هكذا. أو.. لم لا يكون هكذا؟ لا أدري.. لكن الأولاد الذين يتعلقون بي أثناء مروري بنفق المشاة بجانب دوار الداخلية لا يخيفونني، النسوة الشابات اللواتي يضعن أولادهن بجانبهن –**ليمكن اتهامهن بالشحاذة لا بالدعارة**– أيضاً لا يخُفنني. هي فقط.. وكثيراً ما فتشت لها عن اسم يلائمها، ولم أجد.. ليس بعد. حاولت أن أحتقرها.. لم أستطع، ظل الخوف هو الشعور الأقوى تجاهها.

يستفزني عجزي عن إيجاد اسم يلصق بها تماماً.. أو تقريباً.

أحياناً ألتقي شخصاً بالصدفة، في باص المؤسسة، في سرفيس اربد – عمان، في رغدان، العبدلي، في أي مكان، فيسألني وجهه.. يستفزني، سّميني.سمّيني. وأنا أحس الاسم، الاسم يعلق هناك.. في منطقة بين اليقين والخرس. كنت أعرف أنه لو نطق اسمه فسوف يكون هو هذا العالق في مؤخرة رأسي في منطقة اللاكلام. الاسم يكمن تحت جلدي.. يحكّني مثل الجرب، لا أهدأ حتى أعرفه. أبدأ بتجريب الأسماء جميعاً حتى أصل لما يقنعني،

مثل مخاض عسير، أطلق اسماً وأجرّبه على الوجه، أحاول أن أقتنع به لأرتاح فلا أستطيع.. فألفظه، أُخرج غيره، أحاول أحتال عليّ لأنتهي من هذه المعاناة فلا يلتصق الاسم بصاحبه، يرجع إليّ، فأحاول وأحاول، وحين أصل اليأس، كنت أتجرأ أحياناً.. فأسأل، بين اتساع العينين دهشة والتعالي المبتعد الغاضب، كان الاسم هناك. أسأل متنازلة عن بعض الكبرياء. أحياناً أخرى كان الأمر يحدث بمنتهى السهولة، كأن الاسم يكون منقوشاً على الوجه، هكذا.. بمنتهى السهولة، كنت أعرفه.. أشعر به، بالضبط.. هذا الوجه ما كان له أن يسمى اسماً آخر. وأحياناً أشعر أن اسم هذا الشخص خطأ فادح بحقه أو بحق الاسم،كان كثير من الناس يحملون أسماء ليست أسماؤهم، فأخبرهم أنه قد حدث خطأ أثناء تسجيل الاسم، فموظف دائرة الأحوال المدنية.. العتيق.. ضعيف السمع.. ذو النظارة السميكة المكسور حامل إذنها الأيمن، لا يكون قد انتهى من قلاية البندورة الموضوعة إلى جانبه حين ينطّ أبو حامل الاسم الخطأ ويعترض لطول انلطاعه، فلا يكون من الموظف إلا أن يتطاير الشرر من عينيه ويمسح قطعة بصل عالقة على يديه بالمعاملة ثم يكتب الاسم خطأ، ويكون الموظف عصبياً بالضرورة ولا يقيمه عن غداه إلا ألدّ عداه، مما يعني أن اعتراض الأب على الخطأ سيؤدي أولاً إلى مزيد من البندورة العالقة بالمعاملة، ثم إلى إعادة المعاملة ثانية وبعصبية أكبر وشرر أكثر، وبالضرورة أخطاء أخرى لا يمكن تجاوزها مثل الجنس.. مما يتطلب معاملة ثالثة، فيقنع الأب نفسه أن الاسماء هي تفاصيل تافهة تهتم بها النساء فقط وأنه لا فرق بين اسم واسم –ما لم يكن الاسم المخطوء فيه اسم والد الوالد فهنا تقام الدنيا وتقعد – وأنه لن يدخل في طوشة حكومية ليتجنب طوشة بيتية، ويقنع زوجته المرهقة بإطلاق اسمين على ابنه.. أحدهما رسمي.. والآخر بيتيّ. ومع الأيام يصير الاسم البيتيّ شيء أقرب للدلع، ومع ضرورات الرجولة.. يضطر الأهل للتخلص من زعبرة ابنهم بمناداته باسمه الرسمي فقط، وهكذا يلتصق به هذا الاسم التافه.

أما حين كنت أجد الاسم المناسب فلم أكن أتزحزح عنه ولا أقتنع بغيره. لم أكن لأخطيء أبداً، فشخص يسمى سمير لم يكن بأي حال يمكن أن يسمى شيئاً آخر، تماماً مثل المرامات.. فالمرامات جميعاً لهن سمات واحدة وشكل واحد، هذا الشعر الأسود المراوح بين الأكرت والعادي، المرفوع بمطاطة من محلات كل شيء بدينار المتفشية كما السرطان، ذوات الوجه الأبيض المائل للاستطالة أو الشحوب، ذوات الهيئة الذابلة والوقفة الخالية من الاعتداد، خاليات من المعنى.. من الاختلاف.

الأحمدين جميعهم لهم نفس الوجه الممتليء، نفس السرعة في رشق الكلمات، نفس محاولة إضفاء الحيوية على طريقة الكلام، نفس القامة المربعة والقصيرة. لم يكن صابر ليكون إلا لمصريّ، وليس لهذا علاقة بأول شخص عرفته يسمى بهذا الاسم. لم أكن لأقبل يارا قصيرة أو سمراء، ولم أكن لأقبل غادة بشعر ناعم. كنت أخبر الأشخاص أنه من سوء

الفأل أن يُسمَوا بأسماء ليست وجوههم ولا أجسادهم، كنت أعتبره تمويها يقوم به مطلق الاسم على هذه الكمية الـ-**بلا حول ولا طول**- من اللحم. كان من الضروري لهذه الكتلة بعد اكتسابها للحول والطول إذا كانت رجلاً أن تغير اسمها، وإذا كانت امرأة أن تنتهز فرصة نقل ملكيتها من دفتر عائلة والدها -**لماذا يسمونه دفتر عائلة؟ تمويه؟**- إلى دفتر عائلة رجل آخر يملك الحول والطول لتغيير اسمها. كان لكل شكل اسم واحد فقط، دون حيرة يمكن لأي غبي أن يعرفه، لكن الحذلقة في اختيار أسماء الأبناء هي التي تسبب كل هذه الأخطاء، وهؤلاء الأشخاص ذوي الأسماء المخربشة لا يجب أن يتوقعوا حظاً جيداً، لا يجب أن يتوقعوا أن يكون الحظ والقدر أكثر دقة من آبائهم، بحيث يجدهم بعد كل هذا الالتباس والتمويه الغبي.

يستغرقني التفكير فلا أصحو إلا حين أجد شيئاً يمتد أمام وجهي.. إنه بوزي. كنت حين أغرق داخلي، أنسى ضرورات المظهر الحسن، والمغريات التي يجب أن أقدمها في الأماكن العامة كي ألفت انتباه أحد ما -**أفترض هذا الأحد ما دوماً رائعاً وشفافاً ونقياً ونظيفاً**- وهكذا.. كنت أصحو من تفكيري لأجد أسناني على وشك التحطم لكثرة ما كززت عليها، وبوزي يمتد شبراً أمامي، فأعود لفرد تقاطيع وجهي ثم أسرح مرة أخرى لأجد الكشرة تعلو وجهي. الوضع الطبيعي للوجه هو الكشرة، لم أكن أحتاج جهداً لأكشّر.

كانت الكشرة هي خط الدفاع الأول للفتيات في عمر الطعشات، وكانت الكشرة مجدي الأول في الشوارع الملآنة بالأولاد الوقحين والبنات السائبات، وهكذا فقد نبتت لي كشرة بين حاجبيّ. وبعد ذلك حين صرت في الثلاثين لم تنفعني محاولاتي لإزالتها، وكان من الضروري أن أتابع المحاولة، فقد كنت أبدو دوماً مرهقة.. ولم أنل قسطاً كافياً من النوم.. وكئيبة.. لذا.. كان من الضروري ألا أفكر في إشهار أي خطوط دفاع لأنني لم أكن أملك ما أدافع عنه.. كان لدي بقايا شيء لم أتقن الاستمتاع به في وقته..بقايا جمال لم أحسن استثماره لتخزين عبارات جميلة أو نظرات وقحة لأيامي القاحلة القادمة.. وكان لدي بقايا من شباب لم أحسن عيشه لأقول أنني الآن ارتاح من نطنطتي السابقة.. لم أتقن فعل الأشياء دوماً.. ولذا كنت دوماً أختار المقاعد الخطأ في حجازي.. وأبداً لم أتبادل الحديث مع أحد.. كنت أنظر من النافذة.. نظرت كثيراً.. وحاولت.. ألا أفلت ولو تفصيلة واحدة.. وفشلت.

يبحلق السائق في المرآة.. كلما نظرت إليه كان يبحلق.. يراوح داخلي بين الغضب لوقاحته إلى الانبساط الخجول بالقدرة على لفت الانتباه.. وشكوك أخرى..

للفتيات قدرة عجيبة على خلق الألفة في حجازي.. أنا أعرف.. قد عشت عمراً على هذه الطريق.. كن يحضرن معهن أكياساً منتفخة ويجلسن دوماً -**بحكم أقدميتهن واشتراكهن الشهري وضحكات عيونهن لقاطع التذاكر الصارم الذي يشبه صنع الله ابراهيم دون سماحته**- في المقاعد الأمامية، ويدور الحوار الصباحي بكل الحيوية التي لا يمكن لك أن تتخيلها في الساعة الخامسة والنصف في صباح شتائي بارد.. يخرجن أشياء من الأكياس.. ويوزعنها على بعضهن.. وبين الحديث والأكل والنظرات المسروقة في مرآة السائق.. كن يشركن السائق كجزء من لمّتهن وصباحهن ويزول التكلّف البسيط الذي كان. سائق واحد كان لا يشاركهن الحديث،والغريب أنه كان كأنه يمنعهن من الحديث، ففي يومه كانت تتوقف أحاديثهن دون سبب.

للسيارات العاملة على خط اربد – عمان علاقة غامضة بالفتيات.. شيء بين الارتياب والاحتقار كان يشع من الفتيات تجاه هذه السيارات.. وشيء بين الرغبة والاتهام كان يطل من عيون السواقين.. ولا يجوز تسمية هذه السيارات بالسرفيس لأسباب لا أعرفها.. فقط.. لا يلبق لها أن تسمى سرفيس.. لا ترفيعاً ولا تحقيراً..

كانت فتيات اربد عمان ينقسمن إلى ثلاث شرائح.. حسب نوع المواصلة وبالضرورة تبعاً لذلك حسب الشخصية.

شريحة حجازي وبس.. وهن بنات العالم والناس.. اللبّيسات.. بنات ال O .. LA .. LA ، اللواتي يلغين مشوار اربد إذا لم يحصلن على مقعد في حجازي ولا يخاطرن بالذهاب للسيارات أو الكوسترات حيث الحَوَش الذين يبصقون على الأرض أو -**وهنا يمكن أن يقعن مغشياً عليهن**- يتمخطون بأيديهم ثم يمسحوها بثيابهم.. ولم يكنّ مضطرات للمخاطرة.. حيث كانت المقاعد الأمامية الثمانية تحجز لهن احتياطاً.. وتضم شريحة حجازي أيضاً الفتيات العاديات اللواتي ليست لديهن أي نزعة اختلاف على الاطلاق.. العِشَريات جداً فيما يتعلق بالأخريات اللواتي يجلسن بجوارهن والعشريات كذلك مع السوّاقين.. اللواتي يستخدمن لفافات الشعر كل يوم ويسشورن شعورهن كل يوم إذا كنّ مفرعات.. أو اللواتي يمكن أن تجد في إيشارباتهن ما لا يقل عن خمسة دبابيس. كن هذه النوعية غير العملية على الإطلاق من الفتيات.. التقليديات بدرجة قاتلة..

شريحة السيارات، وهن ذوات الخطو السريع، المهملات فيما يتعلق بالملابس والمكياج، النكدات الطبع، المحترمات. وهن نوعين.. نوعية الكرسي الأمامي فقط.. وهن جريئات بشرط الجلوس في المقعد الأمامي.. والنوعية الأخرى هي نوعية مش مشكلة..

وهن الأجرأ على الإطلاق.. مخيفات أحياناً.. خصوصاً للركاب الذين يجلسون خلفهن مباشرة أو بجانبهن.. لم يكن أحد ليجرب أن يقترب منهن.. كانت قوتهن تقفز من أعينهن.. كان واضحاً أنهن من النوعية التي تفضح أي تطاول فلا يجرؤ سعيد السمين، ذو الدشداشة القذرة، المشكوك فيه والذي بسبب هذا الشك يمنحه سوّاقو السيارات حظوة المناداة على سيارات اربد عمّان والكذب الصريح حين ينادي.. عمان واحد.. مما يوحي أن السيارة بحاجة لراكب واحد للانطلاق بينما السيارة لا يوجد بها سوى هذا الواحد، بالإضافة لمنحة أخرى هي فراطة متعارف عليها تلقى بيده قبل التحرك من مجمع اربد الجديد.. كان سعيد السمين لا يجرؤ على إلقاء الصباح عليهن مثل النوعية الأولى.

كانت النسبية تتجلى في نظرتنا للكوسترات التي كانت غاية المراد من رب العباد بين أبو نصير ودوار المدينة أو الداخلية أو حتى رغدان.. بينما هنا.. على خط اربد عمان.. لم يكن يلجأ إليها سوى الفتيات الطارئات.. أو زائرات الموسم.. كن جميعهن بالضرورة من المحجبات.. النحيلات المصابات بفقر الدم.. أو الأمهات السمينات.. طالبات التوجيهي الخلوقات مع آبائهن..

يعجبني الآن أن أجعل حجازي قطاراً. أجعل الطريق بين عمان واربد عشر ساعات، وأجعل في الطريق قرى تتصاعد منها الأدخنة وأولاد قذرون على جانب الطريق، لا تتيح لنا سرعتنا رؤية انشداههم كاملاً. كنت أرى استدارة العينين على وجه ذلك الولد الأسود، وأرى التماعهما في وجه تلك الفتاة ذات الفسطان الزهري القذر. أرى فتحة فم امرأة أنحل من الخشبة التي تمسكها في يدها وتهش بها على بقراتها. وتكون دهشتهم يومية لكنها لا تفتر، كل يوم يحمل لهم القطار غرباء مختفين داخل النوافذ الزجاجية الغامضة، وكل يوم ينتظرون مروره وإدهاشهم.

أجعل الأدخنة تتصاعد من الطوابين، والنسوة مستغرقات في تقريص الجلّة. الرجال يلصقونها بجدران البيوت، الأولاد يرافقون مسيرنا السريع بيأس، والصباح يرش لوناً مخادعاً على كل المشاهد.

كانت الطريق تمر بجرش.. أنظر للأسفل فيسقط قلبي في الاحتمالات.. وأكاد أبكي وأنا أتخيل ردود الفعل على موتي.. وأحب الآخرين أكثر مما أحبهم فعلاً حين يبكون عليّ.

الأسفل بعيد.. وأصوات ألم سابق تعلو مع ضباب يضفي على المكان شيئاً من الرهبة.. ويصعد ألمي إلى الحلق.. وحيداً وواضحاً.. الألم يجر الألم.

وفي الليل.. في الليل الأسود الأسود.. والوحيد.. حين كنت أرى ذلك البيت الذي على رأس الجبل..

ذلك البيت، وحده الذي كان يثير دهشتي.. كيف بنوه.. لمَ هنا؟.. لمَ ليس هنا؟.. وحده بين العتمة والبرد والمطر، لم أكن أقبل بجدرانه الأربعة الخشنة ونافذته الصغيرة حتى لتبدو كأنها نافذة حمّام، كنت أجعل جدرانه ناعمة و زجاجية وضخمة، وأجعل أرضيته التي ترتكز بمعجزة على قمة الجبل المدببة، من خشب جوز الطيب. كانت بيوتي كلها عبارة عن غرفة واحدة، دون فواصل. كانت فكرة تقسيم البيت إلى غرف تضحكني، وكنت أعتبرها نوعاً من الاستغباء. بيوتي هي الصواب، حتى الآخرين كانوا يفعلون مثلي، يبنون البيوت غرفة واحدة كبيرة، لكنهم يفسدونها فيما بعد بما يسمونه التقطيع الذي ينشأ من الأرض صعوداً إلى السقف، كيف يمكن لأيٍ كان أن يقتنع أنه في مكان خاص به، أن هذا المكان صديق له، هذا المكان ليس دنيئاً ولا فضولياً ولا مبتذلاً، حين يكون هذا المكان بالذات، يطل على حيوات لا مشترك بينها ويظل صامتاً كأنما ليستدرجنا؟ كيف ننخدع في غرفنا الصغيرة المغلقة بإحكام علينا لنصدق خصوصيتنا التي ينتزعها فجأة صوت تمخط الجار الذي لا نعرف حتى اسمه، كيف يكون غرباء بين أحاديثنا الموغلة في الخصوصية، أليس الصوت كائناً ينلّ من أحاديثهم ليتغلغل في أحاديثنا. هل كنا نحبهم ولا نمانع في تواجدهم المغمض عنه؟ لمَ كنا إذن نتفادى تبادل الصباحات عند التقاءنا المربك صدفة على أبوابنا المتلاصقة؟. كان السقف الذي يطل على عرينا وعلى قرفصة الغرباء في حمّاماتهم الصغيرة هو أكثر المهانين، فقد كان يتوجب عليه التظاهر بتصديق هذه الخصوصية حين تكون المشاهد الغريبة عن بعضها، والشديدة التمايز، تحدث بقرب لا يمكن لأصحابها تخيله، ولا يمكن للسقف تجاهله ومع ذلك يظلّ هناك، واقف يطل على شخصين لا يفصلهما متر واحد، كلّ على جانب، عين هنا وعين هنا، كل منفرد، وهذه الجدران النامية للأعلى تمنحهما هذا الزيف. ثم كان السقف يسحب الجدار من بين الشخصين كما في ألعاب الليغو، يسحب جدران البيت كلها، ثم يغرق في الضحك. كان السقف ساخراً وبذيئاً، فكنت أجعل سقف بيتي السماء، ثم أسميه " البيت أمام العالم"، وأغرق في سكوني. وحدي كنت أرقب من الشباك الصغير المعلّق على جدار خشن أضواء حجازي وأكون سعيدة.. كنت دوماً سعيدة في ابتعادي عن الآخرين. على رأس الجبل.. وبرد.. وقنديل زيت لا يضيء، والخوف حارسي من النعاس.. وأنتظرك. أنت الذي لم تأت ولم أعرفك.. عرفت فقط أنك كل الأشياء التي أحبها، أنت الملوخية الخضراء في موسمها، وأنت معطف موهير ذي لون باذخ، وأنت الوشم الأخضر على وجه أبيض عتيق، وأنت غرفة أوسع قليلاً من جسدي وكتاب بين يدي وشمس على ظهري أو طاولتي. كان ممتعاً لي أن أخلقك ثم أدمرك.. ثم أعيد خلقك. أضع لك صفات، ثم أغيرها. كنت أراني على الشباك المغلق البعيد معلّقة كفانوس مبتلّ، ثم أراني في

حجازي أسرق الأمان من النعاس، كسهم ناري ينطلق إلى ما لا يدريه.. ليحرق أو يحترق. ولا أظنني أحرقت غير عمري، هذا البائس الوحيد الذي رافقني، لم يملّ صحبتي، أحبّني كما لم يفعل أحد.كان عمري يشبهك، أنت، لعبتي التي صنعت، كنت معي منذ طفولة كسرتُها في حرمانات مالحة لم يفهمها أحد سواي. كنت أحبني كثيراً، أكثر مما يجب.. أعرف. لكني كنت أستحق، كنت بريئة وجميلة وغير قادرة على الإيذاء.. كنت أستقبل الأذى من الآخرين فقط. ولم أعرف هل آذوني فعلاً.. أم أنني كنت أتوهم ذلك.

والآن.. آني لم يعد بريئاً ولا جميلاً. أنظر إليّ قبل خمسة عشر عاماً.. أنظر قبل ثمانية أعوام.. قبل ثلاثة.. دوماً كنت أفضل مما أنا الآن. أتذكر الآن أنني كنت دوماً قاسية عليّ، أرهقتُني في نفوري الدائم مما كنت أدعوه بافتعالاتي وهوَجي.

أتذكر طفولة صارمة، لم يقسُ عليّ أحد فيها مثلما فعلت بنفسي. لم أكن لأسمح لي أن أكون كما راحتي، ليس إرثاً من المتصوفة أو الزهاد أو قاطني الأديرة الوحيدة الحزينة، فالأشياء التي تسعدني كانت هي بالذات التي تحط من قدري، أو على الأقل تساويني بالبقية، ولم أكن لأقبل هذا. لم أستمد قوتي من انسجامي مع الآخرين، بل من عزلتي المتعالية. كانت الأشياء الصغيرة التي تسبب لي السعادة كثيرة، سعادة بدائية قبل أن يفطن دماغي إلى هذا التقليل من قدري. كانت أشياء بشرية، وأحياناً سوقية، تمرّ عليّ للوهلة الأولى، تنتابني البهجة الساذجة، ثم أتذكّرني فأعود إلى ما أريده لي. أنفي هذه البهجة، كنت أعرف أن قمعي لي إنما يوصلني للسمو. مارست رهبنة قاسية، ليس بدافع السموّ، لكن لاكتشاف قدرتي على ذلك.

(ما هو العمر إذن)

العمر هو أن تضحك من قسوتك السابقة عليك..

العمر هو أن تبرر أكثر فأكثر لنفسك وللآخرين كحُماة لك. العمر هو أن ترى خطاياك السابقة تفانٍ.

مع العمر تزداد الخطايا قذارة. فترى نفسك سابقاً أجمل وأقوى وأصدق.

العمر هو الكذب..

في الثامنة والعشرين، تتخلى عن قدرتك على تغيير العالم، يفقد صوتك حماسه وعيناك لمعتهما، تتوقف عن الانقضاض على التافهين الذين تصطدم بهم كل يوم، وتتوقف

عن رغبتك في جعل الآخرين نسخاً منك. حتى أنك تصمت، وتسمع هؤلاء الصغار المنتشين بأحكامهم المطلقة، متحملاً على مضض دونما حتى محاولة رسم الانتباه لأحاديثهم العابرة على وجهك. تعامل كل شيء كعابر، لا تتوقف عنده، لا تحاول التأثير فيه.

نعم.. هذا هو.. التوقف عن محاولة التأثير أو حتى إثارة انطباعات الدهشة أو الرغبة في التماهي معهم.. هؤلاء الصغار. إنه التواؤم، والقدرة على احتمال السائد دون حتى ثقل الإحساس بالاحتمال، إنه التوقف عن الشراسة تجاه الأشياء والآخرين.

إنه أن لا تعود الأماكن مطالبة أن يكون لها نكهة عشب ما، ولا يعود الأشخاص مطالبون بأن يكونوا أكثر من تفاهتهم الحالية. حتى خوفنا من الانسحاب نحو تفاهتهم.. نسيناه، لا نتذكره إلا بقليل من الرعب بين زمن وآخر.

أخشى أنني لن أترك شيئاً من المرارة لسنيّ اللاحقات بشأن العمر.

أنا المرأة – أقول :

ما تشكّل خارج جسدي ليس موجوداً.

أنا المرأة – البدء :

ما يزلزل الكون، لا يحرك شعرة فيّ.

أنا التي أدفع خارجي جنينك الذي تغذّى من دمي.

أنا أطعمته روحي وصوتي ونبض قلبي.. أنا التي كوّنته فيّ.. وصرتَه فيما بعد.

أنت وجنينك وطفلي واحد.

ولأنك مني ولي، فإنك لا تمنحني إلا لذة ألمي بك.

وأنا السكينة :

أنا التي أستقبل احمرار الدم القاني دونما وجل.

الدم – رعب حروب الرجال المضحكة – يأتيني أليفاً.. وديعاً.

مني.. دمي الأحمر.

وأنا السكينة :

أي جلل يفزع طمأنينتك.. ائتني به.. أنزعه عنك. وأيما تعب أحسست به.. امسحه على عتبة قلبي وادخل.

وأنا الأصل :

أترفع عن كل الشهوات الصغيرة والكبيرة.

أنا ال- أَمنح لا أُمنح :

مني ولي كل رغباتي.. وحين أضعف ألمني كي لا يفرك جرحي أحد.

أنا المرأة – الرغبة :

إن اشتهيت – فإنما أنت

إن جعت – أُطفيء روحي قبل أن تفور – لأنتظرك.

بحرٌ لن يعرفه سواك – لن يشرب عطشي المالح غير تشقق شفتيك.

أنا المرأة – العراء أقول :

جسدي إنما يوشح نفسه بنفسه، وعشب قلبي يغطيه.

ما يمنحني الدفء لا نيرانكم ولا أنفاسكم، إنما اشتعال الخلايا واشتعال الروح واشتعال البدن.

أنا المرأة – الكذبة :

يا بعيد – امنحني جسداً من طين كي أقدر أن أصدق ألوهتي.

أحتاجك ملموساً – اعرفْ ذلك.

امنحني ألماً جسدياً ليستكم جسدي طقوس ولادته لك

مخاضٌ عسيرٌ.. طقوس خلقي لك.

وأنا المرأة أقول :

امضِ بعيداً بعيداً.. فإنك في آخرتك لي – وحدي.

أنت ولدي المخلوق مني – لن تجد الدفء سوى تحت ثوبي.

ستعود صغيراً، مثلجاً. لن تستعيد عينيك ويديك سوى حين أمنحهما مغفرتي.

وأنا المرأة – السواد :

وأنا السواد يأكل قلبي – فقدت طفولتي وفرحة شبابي – انتعاش جسدي.. مطفأة من كل شيء.

وأنا المرأة – الحقد :

لم تعد ابتسامتك تطفّلني.

وأنا الواسع – أنا الضيق :

لم يملأني سوى حبك – ولا يملؤني حبك.

وأنت العاشق – الكذبة :

أين أنت؟ لم تسحب الأيام يوماً واحداً بعدك. أراك يا حزين فتحرن الأيام، تغرز حوافرها في قلبي. وأنت لا تسحبها وراءك، تتركها – هذه الأيام القذرة تماحكني.

وأنت – تحزنني :

ما عدت سوى حزينة

مكسورة دوماً بغيابك – أو غيابي – سواء.

وأنت – خليقتي :

أميراً أخضر لي – أميراً مسحوراً

يسحرك ما تظنه عني وما لست إياه.

وأنت – أيها الغاوي :

تبني قصوراً وتتوج ملكات

ثم

أنت – تنزع عن رؤوسهن تيجاناً لم تكن سوى وهمك.

رجل يقول :

الفشل هو أن تحاول أن تُفرح إمرأة.

امرأة تقول :

بدءاً – لم أستطع أن أكون لك كل شيء.

ختاماً – لم أستطع أن أكون لك شيئاً.

امرأة تقول :

اتركني كي أبقى أحبك

اتركني لتتذكر أنك تحبني

دعنا نفترق لنلحق المنسيّ في أعمارنا، ثم نتظاهر أننا نلتقي لأول مرة.

أنا المرأة – جليلة في حزني بك :

يا بعيد – ما ألقت عيناي إلا بك.

يا بعيد – تسرقني من ألف حارس وحارس فتفضحني ابتسامتي – حراسي يعرفون قبلتك حين ترتسم على وجهي.

على أبواب التاسعة والعشرين. أخرج من عشرينياتي مثقلة بالهزائم والأوجاع.. والخيبات قبل كل شيء. أخرج أربعينية الروح وستّينية الرغبة في الحياة. ليس بيدي ما أفعله، كل شيء آخذ في الانهيار، بدءاً بتماسكي الداخلي وقبله كينونتي كشيء أعرفه. يطاردني اهتزاز العالم أمام رأسي أو اهتزاز رأسي أمام العالم.. يتأرجح، ليس يثبت. ما عدت أعرفني.. ضيّعت طريقي إليّ.. وإليك.

لم تعدْ شيئاً بالنسبة لي، صار تبادل الحزن مثل تبادل القصص عن المِيْتات المفاجئة.. مقيتاً، وصار الاتفاق على ما نفكّر به مملاً. كان لك طعم لقاءات السرّ، لكنها الحياة.. أثقلتني ومحت الفرح من قلبي.

وما عادت امتدادات ألوان إربد البنية تثير القلب. الوجوه.. الأشخاص مكرورون. وفرحي الإربدي الذي كان فرحاً يومياً بالخروج منها والعودة إليها، صار يجفّ، لا يصير شوقاً ولا حنين. لا يصير غير فراغ. غادرت اربد دون حتى أن أفكر بها وكنت أقاوم نحيباً يعلو بصدري ولا أدري لإلحاحه سبباً.

الآن.. لا إربد غرفتي ولا عمان، لا أجد ركناً لي.

غفوت البارحة على فكرة كئيبة، أيقظتني، ألبستني ثيابي، وأخرجتني. ما زالت معي. لماذا الجميع لا يحبونني؟ الجميع، الجميع يتمنى زوالي، يحاولون قهري ويستخدمونني، يشفقون على طيبتي أن تواجه شرّي، يبالغون في حبي ليظهروا لي كم أنا سيئة، يرونني أجمل من ملاك لأراني شيطاناً، يحبونني لأني أشبههم، ويكرهونني لأني لا أفعل، ويكرهونني لأني أشبههم كما لا يشبهون أنفسهم ولأني غيرهم كما لا يستطيعون الاحتمال.

ليس ثمة أحد معكِ، لم أكن معكِ كما أردتِ ولا كما أردتُ، صرت معهم عليكِ، وأبقيتكِ مقهورة ووحيدة.

أذكُركَ الآن. كنتَ هناك، في فرجة الضوء الأصفر الشحيح، كنت واقفاً وفقط، لم تنتبه لدخولي، كنت غائباً وكنت ناسية، كيف هكذا، كيف لم يمر زمن بين حضورك وغيابك الحاضر؟ كيف تكون هنا ولست هنا؟ هل أنت شبح؟ لكن التماعة عينيك تعرفني، وإطلالتك واحدة.

حين التفتَّ سألتَني : أنا ميت؟ وأجبتك أنا، لكن صوتي كان لا صوت له. فجلستَ في مقعدك، وسكنت. أخفضت رأسك على صدرك. بين نومك ويقظتي، كنت أحاول استعادة صورة قديمة لك، علّي لا أستبدل كل أزمانك معي بلوحة أخيرة بائسة.. لكني لست أجد.

إذن.. ها أنا. وقعت في الثلاثين وانتهى الأمر. وما كنت أتفلّت للوراء خوفاً من الوصول إليه قد ارتطم بوجهي.. ثلاثوووون. ولست يائسة الآن.. إذن لقد صرت ثلاثين فعلاً.

أحين نوغل في العمر نبدأ في حبه؟ لمَ إذن طوال إقامتنا في العشرينيات نكون نحن والعمر أعداء؟

الآن.. صرت لا أيأس.. لقد كبرت.

أنا المرأة – لا أجد ما يفرحني :

صار الزمن للصمت، واتساع العينين نحولاً على الأجيال التي سوف تعبرني.

حين أكون قادمة من هناك، من تاريخي الذي فاتتني بدايته، من إرثي الملتبس عليّ أولاً، أكون مرتدية عباءة ثقيلة، جديدة وقاتمة على عريي القديم. أخرج، وأضحك، وأضحك، رغم الحزن الذي يشع من عيني اللتان لا يبين من جسدي غيرهما، عيناي اللتان تستلمان وظائف حواسيّ الأخرى المغطاة ببرقع مغبر. ثم أتجول مثل ذئبة جريحة، ويكون الله يصارع الشيطان على قامتي، فأنتصب كأنما بفخر، وهناك، وراء النظرات المشيحة أو الراضي زيفها عني، كنت أرقص تحت عباءتي، فلا يرون إلا سكوني.

كانت عيناي تتسعان، تتسعان كأنما تلتهمان عالماً يبدو من خلال البرقع مثل فيلم فرنسي، شريط أسود في الأعلى، شريط أسود في الأسفل، والأشياء جميعها، بكل ألوانها، تمر من شريط مستطيل بين السوادين. عبر برقعي كانت الألوان أجمل، وكان الآخرون بعيدين بما لا يمكنّهم من إيذائي، كانت بشاعتي سرّي المخفيّ، كنتُ الغامض والمتخيل، وكان وجهي مرتاحاً، لم أكن بحاجة لأن أتظاهر بتشابهي مع الآخرين، لم أكن مضطرة للابتسام أو التعاطف، كان بإمكان الكراهية أن تشع من مساماتي تجاه الأشياء والآخرين، تجاه من خلقني بهذه البشاعة، وتجاه من لا يرون مني سوى وجهي، ألم أكن مسليةً بعوالمي القديمة، ونظرياتي الكثيرة؟ ألم أكن سمحة بذاكرتي المثقوبة وجنوني المتفهم؟ لماذا إذن لم يحبني أحد؟ لماذا جعلوني أغادر هذا العالم لا أحمل سوى المرارة؟ حتى في مغادرتي، اضطررت أن أكون ما لست إياه، كنت أود الانتحاب على صدر أرضي الصغيرة، أردت أن أبدي ضعفي كله، كله، كما لم أجرؤ يوماً على إبدائه، أردت أن لا أنتبه لشكل وجهي، أردت أن أتركه على راحته، أردت أن لا أخاف استغراقي المنذهل في التكشيرة، وأردت أن لا أنتبه إلى طريقة جلوسي، وأردت أن لا أخاف من الأحكام القاسية للآخرين استناداً إلى عدد الأزرار المفتوحة من قميصي وطول تنورتي، وأردت أن أسند رأسي لكتف الشاب الذي يجاورني في الباص وأقول له يا أخي، وأردت أن أستعيد سكينتي تحت الماء، أردت أن لا أخاف من العمر ولا من التباس الحب، أردت أن لا أخاف من الوحدة ولا من الإهمال، أن لا أخاف من أن يسمونني قحبة أو عانساً أو عقيم، وأردت أن لا أضطر للتأكيد الدائم على "وعيي" و"وطنيتي" و"استعدادي النضاليّ العالي" في مواجهة تشكك الجميع بي لمجرد أنني أنتمي -أحياناً- لوطن صغير بدأ يكبر فيّ ويزيح الأشياء من داخلي ليسكن، أردت كثيراً أن لا أتظاهر بالقوة وأنا أغادر، لكني لم أستطع، كان كبرياء صغير يلتمع على طرف حذائي، لم أستطع أن لا أراه فقد كانت كراهيتهم تنكّس رأسي. لذا، تظاهرت باللؤم، وأردت إخافتهم، هؤلاء الذين أخافوني دائماً. تركت ورائي ضحكتي اللئيمة، وتحذيري لهم من رذائلهم الصغيرة. تركت لهم ذنوباً تلحّ عليهم لأني كنت طوال الوقت في زاويتي ولم يكلّف أحد نفسه مشقة الالتفات.